

١



الملك الهارب

تأليف

محمد عبدالفتاح حسين عيسى



حكايات أندلسية ، مجموعة قصصية رائعة فيها يعرض المؤلف صورة من تاريخ المسلمين في الأندلس في صورة قصصية، وبأسلوب ميسر جذاب، فأنت عندما تبدأ القراءة لن تستطيع التوقف إلا في نهاية القصة، ثم تعاود القراءة مرة ومرة، وسيأخذك المؤلف في رحلة إلى طبيعة الأندلس الخلابة، وستقف معه لتشاهد قصورها العامرة، ومدنها قرطبة، طليطلة، قبطيل......... ستعتلي خيل قرطبة، وتنبهر بشخصيات لا ينساها تاريخ الأندلس.

فمن وعى التاريخ في صدره أضـــاف أعمارًا إلى عمره

الناشر

حكايات أندلسية

١

الملك الهارب

حكايات أندلسية ١

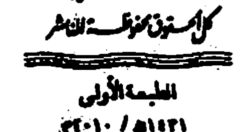
الملك الهارب

تأليف

محمد عبد الفتاح حسين عيسى



الإدارة: ١٢٩ ش الزهراء - مدينة نصر - القاهرة.
تليفاكس: ٤٤١ ١١١ ٢٤ ٠٢ ٠٠٢ ، محمول: ٠١٦٨٨٣٣٥٢٥
مركز التوزيع: ٣ درب الأتراك خلف الجامع الأزهر - القاهرة.
هاتف: ٦٣٣ ١٤٩ ٢٥ ٠٢ ٠٠٢ ، محمول: ٠١٦٨٨٣٣٥٢٤



الطبعة الأولى
١٤٣١هـ / ٢٠١٠م

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية
٢٠٠٩/٢١٠٢٢
الترقيم الدولي
I.S.B.N. 978-977-489-029-1



الملك الهارب

تأليف

محمد عبدالفتاح حسين عيسى




بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

انكمش في أحد أركان القبو المظلم وهو يسمع خطوات الجنود القشتاليين من فوقه، وتسارعت أنفاسه حتى ظن أنها سترشدهم إليه، فازداد انكماشه وتصاعد الدم إلى رأسه حتى إنه لم يعد يسمع سوى ضربات قلبه وكأن الوقت قد توقف، وفجأة انفتح الباب فأغمض عينيه حتى يحميها من الضوء المفاجئ وشهق في رعب

"لا تخف لقد رحلوا"

فتح عينيه في هدوء ليرى الوجه المصبوح الذي يقف أمامه

"رحلوا"

"نعم أنا لم أنزل إلى هنا حتى تأكدت من رحيلهم"

"سأرحل الآن حتى لا أسبب لكم أذى"

"إنهم منتشرون بالمدينة ولو خرجت قد تقع في أيديهم"

"وما العمل الآن؟"

"أن تبقى هنا حتى تهدأ الأمور"

"قد يكتشفوا القبو"

"لا تخف لقد أتقن أبي صنعه ليخفي فيه كتبه حتى لا يصل إليها القشتاليون فكما

تعرف لو وقعت بين أيديهم لأحرقوها"

"سأثقل عليكم"

"على العكس فأنت وكل الثائرين تستحقون الكثير"

"أرى ورق ومداد"

"نعم إنهم لأبي"

"هل أستطيع أن أستخدمهم؟"

"بالطبع هل تحب الكتابة؟"

"إنني فقط أكتب بين الحين والآخر لأحفظ لغتي من أن تأكلها لغة القشتاليين"

"وماذا تكتب؟"

"أسجل أقاصيص سمعتها من أبي عن تاريخنا في هذه الأرض"

"بكل تأكيد سأقرأها"

"بالطبع"

"سأتركك الآن لتستريح، خذ هذا المصباح لتستعين بضوئه"

خرجت وتركته بين الأوراق والكتب

فأمسك القلم وبدأ يكتب

* * *

المخطوطة

"كيف عثرتم على هذه المخطوطة النادرة؟"

أمسك البروفسور "خوسيه كاسيوس" أوراق المخطوطة المتهالكة في سعادة، وهو يتصفح أوراقها المكدسة في صندوق خشبي في حرص، دون أن يلتفت إلى الشاب الواقف أمامه أو إلى العمال الجادين في عملية التنقيب عن القطع الأثرية - في مشابرة - في قبو بدا كالقبر انكشف جزء من جداره عنه ليدخله

نور الشمس لأول مره منذ ما يجاوز الخمسمائة عام.

" كان السيد مارتين يهدم ذلك البيت القديم الذي اشتراه عندما وجد العمال ذلك الصندوق الذي يحتوي على كل هذه الأوراق"

"إنها كنز حقيقي"

"لعل البيت كله أثر عتيق لا أدري كيف سمحوا لهؤلاء بهدمه"

"مازلت صغيرًا يا "كارلوس" لم تلاحظ أن البيت قد دخل عليه التعديل في الكثير من العصور التالية ، وهذا واضح في كل أركان البيت ولا يحمل أية قيمة تاريخية حقيقية سوى هذه الأوراق المدفونة في قبوه"

"ولكن كيف اختفت هذه المخطوطة كل

هذه السنوات"

"إن كاتبها كان ذا ذكاء حاد استغل التلة التي يستند إليها البيت وحفر هذا القبو بها ثم أغلقه بجدار ليحمي خصوصيته، لا أدري كيف كان يدخل ويخرج، ولكنه بالتأكيد كان يحوي ممرًا سريًا ليستخدمه، انت تعرف بالطبع كيف كان يتسم هذا العصر بالدموية والتعصب الديني المفرط، وقد نجح ذلك الرجل - بلا شك- نجاحًا باهرًا؛ فرغم كل هذه السنوات لم يشك أحد أن هذا الجدار يستند إلى الصخور لا انه ساترًا لهذا القبو ومخطوطته الثمينة"

"بالطبع يا سيدي فلعلهم لو اكتشفوه في عصر سابق لدمروه وأحرقوه"

"تبًا لهذا التعصب الأحمق الذي أضاع تراثنا"

"ولكنه يا سيدي حفظ لنا نقاء دينيًا يظل درة متألقة في جبين أسبانيا على مر الزمان"

"هل تعلم يا "كارلوس" أنه على الرغم من كل هذه السنوات، ورغم العلم إلا أن التعصب الديني والعنصرية مازالت تجري في دماء الناس هنا ، وما قلته أنت الآن هو أكبر دليل على ذلك"

"أنا يا سيدي؟!!"

"نعم، مقولتك عن النقاء الديني مازالت تحمل تعصب سنوات طويلة"

"أوليست صحيحة؟"

"هل تعلم؟ لقد تميز العرب الذين سكنوا هذه البلاد عنا بسعة صدرهم في تقبل الآخر"

ابتسم كارلوس ابتسامه ماكرة وقال مداعبًا:

"على مايبدوا ياسيدي أن جذورك تمتد إلى هؤلاء العرب"

رد البروفسور "خوسيه" في جدية:

"هل تعلم أنني لو اكتشفت هذا لأعلنت في انتصار أنني أنتمي إلى حضارة عظيمة سكنت هذه الأرض وإن جهل الناس قدرها؟"

"ولكنك لا تدين بدينها"

"ولكنني مؤمن بمبادئها الإنسانية، بل وأعتبرها جزءًا هامًّا من تاريخ أسبانيا"

"ألست تخالفهم في مسائل كثيرة"

"ولكنني أقدّر منهجيتهم العلمية"

"سأظل أتعلم الكثير مادمت إلى جوارك يا

بروفسور"

" أشكرك على هذا الإطراء، ولكن دعنا نرتب هذه الأوراق"

"إنها حكايات منفصلة لا يربطها رابط"

"هذا يبدو واضحًا في المقدمة"

"ولكن هناك ملاحظتان"

"ما هما؟"

"الأولى أن هذه المخطوطة لا يظهر فيها أسلوب المواركة في الكتابة والذي تسللت إليه اللكنة القشتالية"

"والثانية؟"

"الثانية أن هذه المخطوطة لا تلتزم بالأسلوب المتبع في توثيق التاريخ بالطريقة التي عرفها العرب".

"بالضبط، وكلتا الملاحظتين أشار إليهما الكاتب الحاذ الذكاء في مقدمته، فهو يدرب نفسه على استخدام لغته، وهي أيضًا مجرد حكاية وليست كتابًا في التاريخ، بالتأكيد نحن أمام عمل أدبي حفظه لنا القدر"

"هذه الصفحات التي بين يديك"

"ما لها؟"

"إذا تعاملنا معها من منطلق أنها قصة نستطيع أن نطلق عليها: الملك الهارب"

"الملك الهارب!!"

ردد البروفسور الكلمة في شرود وهو يعيد النظر في الأوراق

"نعم فهي تتحدث عن ألفونسو السادس قاهر طليطلة، بروفسور هل تسمعني ؟؟"

تكلم أحد العمال الواقفين

"بروفسور خوسيه قد سقط في بئر القراءة"

"يبدو ذلك"

ثم ردد بينه وبين نفسه

"فهو عالم بحق"

* * *

المعركة

وقف الملك "ألفونسو" على نهر كريون يراقب جنوده وهم يسابقون شمس مملكة ليون الغاربة، كانت الاستعدادت للمعركة المرتقبة تجري على أشدها، عندما ظهر في الأفق فارس يقترب منهم مسرعًا فتحفز بعض الجنود للقائه فبادرهم صائحًا:

- "مولاي ألفونسو"

أشار الملك "ألفونسو" إلى رجاله أن يتركوه، فنزل الفارس عن ظهر جواده ثم ركع بين يدي الملك في خشوع عندما التفت الكونتات حول الملك

"لقد اقتربوا كثيرًا يا مولاي سيصلون إلى هنا مع شروق الشمس"

"أين هم الآن؟"

"على مسيرة ميلين إنهم يعسكرون هناك الآن، يستريحون من عناء يوم مرهق"

هنا تكلم الكونت "لايان"

"يوم مرهق من انتساف مزارعنا والعيث في أراضينا، أنا لا أدري يا مولاي لماذا لم نذهب للقائه قبل أن يتوغل هكذا في بلادنا"

"لا تجعل العدو يفرض عليك أرض المعركة

كونت "لايان""

ضحك شيخ كبير من المحيطين بالملك بصوت وقور

"لا تنس مولاي "إلفونسو" أن هذا العدو هو أخوك الملك "سانشو""

"أعلم كونت "أنسوريز"، ولكنه هو الذي دفعنا إلى ذلك، أنت تعلم هو الذي بدأ من قبل وانتزع منا جزءًا من مملكتنا، ولا أظنه منتهٍ حتى يضم ليون بأكملها إلى مملكته، أو أن نوقفه عند حده"

عاد الكونت "لايان" للكلام

"إن أخاكم الملك "سانشو" شديد الجشع، فقد اختصه مولاي الملك "فرناندو" بأكبر أجزاء مملكته، اختصه بمملكة قشتالة، بل

وقبض جزية مملكة سرقسطة"

"لكن ليون وأشترويش ليستا صغيرتين، وجزية طليطلة شديدة الإغراء، لا أدرى هل جانبَ أبي الصواب عندما قسَّم مملكته بيننا أنا وإخوتي"

عاد الشيخ للكلام

"هذا كان يعني أن يصير كل شيء إلى "سانشو" من البداية فهو الأكبر"

"ولكنه كان سيجنبنا قتال بعضنا بعضًا"

"هل تظن ذلك حقًّا؟ وهل تظن كونك راضيًا وقتها؟"

شرد الملك "ألفونسو" بفكره قليلاً ولم يجد ردًا ثم توجه إلى الجند بالحديث هاربًا من السؤال

"لنحظى بقسط من الراحة قبل الصباح فأمامنا يوم شديد غداً، يا جنود الخراسة يجب أن تكونوا متيقظين"

ثم نظر إلى الكونتات المحيطين به

"غداً عندما سيهاجم جيش قشتالة سأواجههم أنا، وستكون ظهورنا للنهر حتى لا نُؤتى من الخلف، وعندما يشتغل جيش قشتالة بقتالنا سيهاجم الكونت "لايان" بجنوده من اليسار والكونت "دياث" من اليمين كما اتفقنا مسبقاً"

"مازلت معارضاً لتعريضك نفسك لهذا الخطر، فليقم أحدنا مكانك ولتأت يا صاحب الجلالة مع جنود الميسرة أو الميمنة"

"أنا أريد مفاجأتهم يا "لايان" وغيابي سيثير

الشكوك"

انفض المحيطين بالملك "الفونسو" فقال محدثًا نفسه

"غدًا سيكون يومًا عسيرًا يا أخي، ولكنك لن تهزم الفونسو ثانية أبدًا .. أبدًا"

* * *

بدا أن شمس ليون قد تأخرت عن موعد شروقها هذا اليوم، فعلى الرغم من أنها كادت أن تتوسط كبد السماء إلا أن غبار الخيل كان قد حجبها ، لم يسبق الأمر كبير استعداد فالجيش القادم كان يريد مباغتة الجنود النائمين وتوغل فورًا تجاه الخيام المنصوبة في مقدمة المعسكر، ليصطدم بالجنود الرابضين في مؤخرة المعسكر، ودارت

بينهم معركة حامية الوطيس وفجأة انحدر على جيش قشتالة من اليمين واليسار قوات جديدة فأربكتهم المفاجأة، كان الملك "ألفونسو" يقاتل بين رجاله في جرأة محاولاً تفتيت هذا الهجوم الشرس وعلى الرغم من الارتباك الذي وقع في صفوف المهاجمين إلا أنهم حاولوا تدارك هذا الهجوم والتراجع للخلف، وكان "سانشو" واقفًا فى مؤخرة جيشه وبدأ يشعر بتقهقر قواته:

"كونت "كالثو" هل ترى هذا الفارس هناك؟"

"نعم يا مولاى"

"أليس هو أخى "ألفونسو"؟"

"لا أستطيع الرؤية جيدًا، بل يبدو أنه هو"

"لتنزل عليّ لعنة الرب إن لم يكن هو، أيها الفارس "جونزالس" لك ضيعة وسأرفعك إلى مرتبة الكونتات لو أتيتني برأسه"

" أمرك يا صاحب الجلالة"

وانطلق الفارس يحمل رمحه في يده ليس له هدف إلا "ألفونسو" فصرخ أحد القريبين منه:

"انتبه يا سيدي"

انتبه "ألفونسو" في اللحظة الأخيرة فمال بدرجة شديدة كادت تسقطه من على فرسه ليتفادى ضربة الفارس، والتفت إليه ليستقبله بسيفه فاحتمل الفارس الضربة على رمحه، ولكن الفرسان المحيطين بالملك تكالبوا عليه وأردوه قتيلاً ، فصرخوا في سعادة وحملوا حملة واحدة على جيش قشتالة، وشاهد "سانشو"

هذا

"مولاي إن الجيش ينهزم"

"أرى هذا أيها الحاذق"

"ماذا سنفعل؟"

"وهل هناك حل غير..."

وصمت قليلاً كمن يبحث عن كلمة مناسبة وشد لجام فرسه وهو يقول:

"التراجع"

وانطلق هو ومن معه من كونتات وفرسان وعلى إثرهم الجنود المتراجعين وجيش ليون يعمل فيهم القتل حتى تجاوزوا خيام جيش قشتالة

"توقفوا"

"دعنا نقضي عليهم يا سيدي"

"يكفي هذا كونت "لايان" فهذا سيفرق الجيش ويقلب النصر هزيمة"

"إذاً لنحتفل بالنصر"

تصايح الجنود في نشوة وهم يتراقصون ويجمعون ما خلفه الجيش الفار، ويتحدثون عن كرم مليكهم مع أخيه إذ لم يتبعه ويقتله، لقد نامت اليوم شمس ليون في أحضان الجيش المنتصر.

* * *

جد الملك "سانشو" في الهرب حتى سمع صوت إحد فرسانه

"مولاي "سانشو""

"ماذا تريد يا "رودريجو"؟"

" انتظر قليلاً يا مولاي"

"ما الأمر؟"

"لقد ابتعدنا بما يكفي"

"يكفي؟"

"ليظنوا أننا تراجعنا، نحن لن نرحل مهزومين يا سيدي فسيغريهم هذا بنا"

"ولكنهم انتصروا يا روديجو"

"لنقلب نصرهم إلى هزيمة"

"وكيف ذلك أيها الحاذق؟"

"إن زهوة النصر تأخذهم الآن وسيرهقون أنفسهم في الاحتفال به وعند الفجر نكون قد جمعنا أشتات جيشنا ونلنا قسطاً من الراحة فنحمل عليهم وهم نائمون"

"إنك لتستحق ما وعدت به "جونزالس" أحسنت يا "روديجو"، أيها الجنود لنعيد تنظيم

أنفسنا"

وبدأ الجنود يجمعون أنفسهم واختفوا بين الأشجار العالية وهم يسمعون أغاني الجيش المنتصر.

* * *

استيقظ "ألفونسو" على صرخات جنوده، ونهض مسرعًا ليمسك بتلك اليد التي وضعت على كتفه، فوجد من يضع يده على فمه ليسكته

"سيدي "ألفونسو" اهدأ قليلاً أنا فرناندوا"

بدأ "ألفونسو" يهدأ وينتبه

"لقد هاجمَنَا الملك "سانشو" ونحن نيام واعمل في جنودنا الذبح، لقد استيقظت على أصواتهم وأول ما خطر لي هو أن أسرع إليك

حتى لا يباغتوك، أسرع يا سيدي لننجوا بأنفسنا"

تسلل كلاهما في خفة وسط هذه الفوضى التي عمت المكان وسمع صوت أحد الفرسان يصيح:

"ابحثوا عن "ألفونسو" في كل مكان"

امتطى الملك فرسه في سرعة وانطلق هو ورفيقه .

"هاهو هناك إنه يفر الحقوا به"

شعر الفرس بورطة صاحبه فانطلق في سرعة السهم، ومن خلفه المطاردين كانوا خمسة؛ فانفصل عن رفيقه فانقسم الفرسان إلى فرقتين خلف كل واحد منهم، واختفى الملك في منطقة كثيفة الشجر وتبعه ثلاثة

منهم

"أنا لا أرى إلا فرسه"

نزل الفرسان عن جيادهم ليبحثوا عنه

" أين ذهب؟"

"هنا"

قالها الملك وهو ينزع سيفه من جسد أقرب الفرسان إليه، لقد برز لهم فجأة من الخلف قافزًا من فوق شجرة كثيفة الأغصان ليطعن أحدهم، والتفت الفارسان الآخران ليقاتلاه فهاج فرسه ليركل أحد المهاجمين بقوائمه في الوقت الذي أجهز فيه ألفونسو على الآخر، زحف الذي ركله الفرس حتى نجح في القيام فاتجه إلى فرسه مسرعًا ليعود إلى المعسكر، ورآه الملك "سانشو"

"أين ألفونسو؟"

"لقد نجح في الفرار يا مولاي"

"وأين رفاقك؟"

نظر الفارس إلى الأرض، ورمقه الملك بامتعاض متطلعًا إلى أثر الإصابة، والتي أجابت عن السؤال

"دعونا لا نعكر صفو نصرنا بهذا لقد صارت ليون كلها لنا ولن يجد مكانًا يذهب له"

وتعالت أصوات المنتصرين ولكن هذه المرة كانت من الفريق الآخر.

* * *

الهارب

وقف فارس ملثم في حالة مزرية أمام كنيسة بلدة كريون وهو يطرق الباب وإلى جواره فرسه يصهل في شدة

"من بالباب"

"عابر سبيل، انقطع به الطريق"

فتح القس باب الكنيسة

"مرحبًا بك"

دخل الفارس معه وترك الفرس بالخارج
وأغلق القس الباب
"هلا رفعت اللثام يا بني"
رفع الفارس اللثام فصاح الرجل في دهشة
"مولاي الفونسو"
"صه، إنهم يبحثون عني في كل مكان"
"يبدو عليك التعب يا مولاي، تستطيع هنا في
حماية الرب أن تطمئن"
"أرجو ذلك ولكني لا أثق به"
أصاب القس الحيرة من رد الملك ولم يجد
ردًا يناسبه
"أريد أن أخفي فرسي حتى لا يعرف أحد
منه بوجودي هنا"
"أمرك يا سيدي"

"هل هناك مكان يصلح للاختفاء هنا حتى أستطيع ان اجمع رجالي؟"

"وإن لم يكن موجودًا نوجده يا سيدي"

"هل يوجد هنا طعام وثياب"

"يوجد يا مولاي غير أن ثياب الرهبان وطعامهم لا يليقون بجلالتك"

"وهل يليق بي هذا الثوب المهلهل، أسرع يا رجل"

انطلق القس مسرعًا ليجيب أوامر ألفونسو، الذي جلس مفكرًا في حزن لما آل إليه حاله، وكيف سيستطيع الاتصال برجاله أو ما بقى منهم، لعل "سانشو" الآن يعتلي عرشه، ويأمر وينهى في ملكه ويقسم أمواله وعبيده وجواريه "تبًا"

قطع دخول القس أفكار الملك

"لقد أحضرت لك الطعام والثياب"

قام الملك وارتدى ثياب الرهبان الذي أتى له بها القس ثم نظر إلى نفسه

"لست سيئًا في هذه الثياب، إنني أزين كل ثوب ألبسه"

"هل تأذن لي يا مولاي بالانصراف لتأكل طعامك دون إزعاج"

"إلى أين؟ هناك عملاً هامًا يجب أن تقوم به"

"ما هو يا مولاي"

"أولاً هل أخفيت الجواد"

"نعم يا مولاي"

"أريدك أن تبعث بأحدهم إلى ليون ليبحث عن فارس يسمى "فرناندو أنسوريز" وعندما

يجده يطلب منه الحضور إلى هنا ويريه هذا الخاتم ليثق به"

"أمرك يا مولاي"

"لا تخبر من سترسله بأني هنا ، وأوصه أن يبحث في سرية؛ لأنه من المؤكد أن فرناندو أيضًا مطارد"

"أمرك يا مولاي"

"ماذا تنتظر اذهب الآن"

انطلق القس تاركًا خلفه الملك الهارب لأفكاره، ترى ماهي خطوة أخيه القادمة وماذا سيفعل معه؟

* * *

"جيش قشتالة على الأبواب، جيش قشتالة على الأبواب"

كاد ذلك القروي ينكفئ على وجهه وهو يجري ويصيح منبهًا للناس الذين أقفرت منهم الطرقات، حتى جذبته يد قوية امتدت من أحد الأبواب

"اهدأ يا رجل"

" جيش قشتالة على الأبواب"

"اهدأ يار جل"

بدأ الرجل يهذي بكلمات غير مفهومة، والآخر يهزه ليهدئ من روعه حتى بدأ الزعر يذهب عنه

"لقد انتصر الملك "سانشو""

"ما لك يا رجل؟ وما لنا بمن انتصر ومن انهزم، كلاهما واحد فسانشو أخو ألفونسو وألفونسو أخو سانشو، ألم يكن من الجائز أن

يمنح الملك فرناندو ليون لسانشو من البداية"

"ولكنه أخذها بالقتال أي أنه سيكون هناك قتل ونهب"

"وهل عندك ما تخشى فقده؟"

"كلا"

"إذًا لماذا الخوف؟"

"المدينة كلها خائفة"

"ليس مبررًا ، لا أدرى لقد كانوا يستعدون للاحتفال بالنصر، ولا أدري بماذا سيعود عليهم النصر أو الهزيمة"

"إنهم يأسرون من يعترض طريقهم، بل ويتعرض للإيذاء الشديد"

"إذًا لا تعترض طريقهم وأغلق بابك لن يمسك سوء"

"والسلب والنهب؟"

"يا للجحيم، ألم تخبرني أنه لا يوجد ما تخسره، صدقني هذه الأرض أرض المقاتلين والمغامرين هم من يربح من النصر وهم أيضًا من يخسر، بل قد يموت نتيجة الهزيمة"

"وماذا أفعل الآن؟"

"تنتظر معي حتى ينقضي هذا الأمر، أو تتسلل عائدًا إلى بيتك، هل تسمعني، تتسلل لا تسير هاتفًا: جيش قشتالة على الأبواب"

ظهر الهدوء على الأول وبدأ يفكر كيف يتسلل إلى بيته فأخذ ينظر من ثقب في الباب

"انظر لقد أوقعوا براهب"

"إذًا فأنا أنقذتك من أن تحل محله"

"يبدوا أنهم أمسكوا به خارج المدينة فأنا لا

أعرفه"

"ليعينه الرب على ما سيلقى منهم"

"اسمع ماذا يقول له"

وحاول كلاهما إرهاف السمع ولكن الركب مر، ركب الملك المنتصر.

* * *

دخل الملك "سانشو" إلى قاعة عرش الملك "ألفونسو" في ظفر وجلس محل أخيه في تعالٍ وفي صحبته رجاله والراهب الذي أمسكوا به خارج المدينة.

"قل لي مرة أخرى: إلى أين كنت ذاهبًا؟"

"إلى الكنيسة يا سيدي"

"أي كنيسة؟"

"كنيسة المدينة"

"أين ألفونسو؟"

"لا أعرف يا مولاي"

"إذًا من أين أتيت بخاتمه؟"

"وجدته ملقًى على الأرض"

"وجدت الملك ألفونسو ملقًى على الأرض؟!"

"بل وجدت الخاتم ملقًى على الأرض"

"وأين ألفونسو إذًا ؟"

"لا أعرف يا مولاي، أقسم أني لا أعرف"

"عار عليك أيها الراهب، أتكذب؟"

ثم قام وتوجه إلى الراهب وأشار إليه بإصبعه مهددًا:

"أستطيع أن أصدق – وهذا فقط إرضاءً للرب - أنك كنت ذاهبًا إلى الكنيسة على الرغم من أنك كنت ماشيًا في الطريق

المعاكس، ولكن من الصعب أن أصدق حتى لو جئت بالرب نفسه أنك لم تلق ألفونسو"

"أنا مجرد راهب يا سيدي"

"إن أخي ما كان ليخلع خاتمه إلا لرسول له أو أنك قتلته وسرقته منه"

"أقسم أن هذا لم يحدث"

"هل تظن أنني سأغضب منك، على العكس سأعطيك جائزة كبرى"

"لقد كنت سائرًا في الغابة عندما وجدت الخاتم"

"إذًا أنت تتميز بالصبر الذي لا أتميز به أنا، إذًا لنبدأ من جديد إلى أين كنت ذاهبًا؟"

"كنت ذاهبًا إلى الكنيسة"

"يا للجحيم"

وأمسك به من خانقه

"اسمع أيها الحاذق لقد فقدت أعصابي فأنا مستيقظ منذ ثلاثة أيام"

"مولاي سانشو لقد أحضرت قس كنيسة ليون كما أمرت"

نظر الملك سانشو إلى الداخلين من الباب

"أيها القس جِدْ لي حلاً مع راهبك هذا وإلا وشياطين الجحيم لأنكلن بكم جميعًا"

"أي راهب يا سيدي؟"

"ماذا تقصد بأي راهب؟ أي جنون هذا؟"

"لو تقصد هذا الذي يرتدي مسوح الرهبان فأنا لا أعرفه، بمعنى آخر: لا ينتمي إلى رعايا كنيستي"

"إذًا هو كاذب"

ثم صاح في غضب

"يا جنود، خذوا هذا الكاذب اصلوه أشد العذاب حتى يتذكر كل شيء ويروي لكم حتى الذي حدث يوم وضعته أمه"

"مولاي سأقول كل شيء، أقسم"

ويدأ الجنود في سحبه

"لقد أعطاني الخاتم والمسوح قس كنيسة كريون"

"انتظروا"

"أنا من شماسي كنيسة كريون، طلب مني القس هناك أن أبحث عن فارس يدعى فرناندو أنسوريز وأعطيه هذا الخاتم وأطلب منه الحضور إلى هناك، أقسم اني لا أعلم أكثر من ذلك"

"كنيسة كريون يا للشيطان، كيف غاب ذلك عن أذهاننا إن هذا يفسر كل شيء"

"أقسم يا مولاى أني لا أعلم أكثر من ذلك"

"أصدقك، لقد حان الوقت الذي تستريح من كل هذا"

"شكرًا يا مولاى"

أشار الملك إلى أحد جنوده فأخرج سيفه وضرب عنق الرجل قبل أن ينتبه

"لقد كنت رحيمًا به يا أبتاه ولم أعذبه لأجلك ولأجل الرب"

شعر القس بغصة في حلقه وهز راسه بالإيجاب

"كونت كالثو تدبر الأمور حتى أعود، أيها الجنود أعدوا العدة للخروج إلى كريون"

* * *

الأسير

دفع الفرسان باب الكنيسة لينفتح على مصراعيه واقتحموا المكان في عنف ليحيطوا بكل من فيه، والتفتَ الجميع إلى صوت آخر الفرسان الذي لم يكن سوى الملك سانشو

"لن نقطع عبادتكم أيها المباركين فقط أخبروني بصاحب هذا الخاتم"

أخذ كل منهم ينظر إلى الآخر في قلق،

فصرخ فيهم

"لماذا تدفعوني للزج بكم في هذا الصراع،
لماذا لا تنتبهون إلى صلواتكم فقط"

وانتبه فجأة إلى ذلك الذي يبالغ في إخفاء
وجهه ببرنس يخفي معالم وجهه

"أنت أيها الراهب تقدم"

استشاط الملك غضبًا عندما لم يستجب
الراهب لكلامه، فاتجه إليه وجذبه من ثوبه
في شدة

"عندما يأمر الملك سانشو يجيب الجميع"

انكشف وجه الراهب فابتسم سانشو في
ظفر

"أخيرًا، أخي الفونسو"

"الفونسو ابن الملك فرناندو وملك ليون"

أخذ سانشو يضحك في هيستيرية

"لماذا؟"

نظر إليه ألفونسو بتخدد فاستطرد سانشو

"لماذا لم تمت وترفع عن كاهلي وزر قتلك؟"

"حتى تحيا بهذا العار بقية حياتك يا أخي"

"ليتك تفهمني يا أخي، إن أرضنا لا يجب أن تقسّم وتضيع، يجب أن تبقى موحدة برغم رغبة أبينا في إرضائنا جميعًا برغم حبي لك برغم كل شيء"

"ولو على دمائنا يا أخي؟"

"ولو على دمائنا يا أخي الصغير"

عبث سانشو بخصلات شعر ألفونسو

"أتفهمني يا أخي الصغير؟"

وابتسم سانشو في طفولية

"لنرحل الآن؟"

تحرك الجنود ليقيدوا الملك ألفونسو فصرخ سانشو في غضب

"لا أحد يمس الملك ألفونسو"

استوعب الفارس رودريجو الأمر بسرعة وصاح في الجنود

"اصنعوا حول الملك ألفونسو دائرة دون أن تمسوه"

نظر إليه الملك سانشو في عجب

"نعم أطيعوا الفارس رودريجو"

ونظر إلى الموجودين بالكنيسة

"وداعًا، انشغلوا بعبادتكم الآن"

ثم بدا وكأنه قد تذكر شيئًا

"حقًا ألن يقرع أحدكم الأجراس؟!"

تجمد الواقفين من الخوف .

"الملك المنتصر عندكم ولا تدقون الأجراس، فليقرع أحدكم الأجراس اللعينة"

صعد أحد الموجودين برج الكنيسة وظل يقرع الأجراس في ذعر، وهو يرى الملكين وهما خارجان من الكنيسة وما كاد الجمع يبتعد عن الكنيسة حتى لحق الفارس رودريجو بالملك شانشو

"لم أنس وعدي لك يا رودريجو"

"أنا لم ألحق بجلالتكم لأتحدث عن أمر أثق فيه"

"ماذا تريد إذاً؟"

"كنت أريد أن أسأل هل تنوي أخذ الملك ألفونسو إلى ليون"

"وماذا في هذا؟"

"الكثير يا مولاي، لعل أنصاره وجنده تأخذهم الحماسة إذا اجتمعوا به، وقواتنا لن تكفي لردعهم وهم في أرضهم"

نظر الملك في خبث إليه

"تريدني أن أقتل أخي هنا يا رودريجو؟"

"رودريجو من الذكاء يا سيدي أن يدفع بنفسه بين الإخوة، فقط عندي اقتراح"

"وما هو؟"

"احبسهُ في أحد الحصون بعيدًا عن مدينة ليون، في حصن برغش مثلاً"

"حصن برغش"

وصمت قليلاً

"يا جنود سنتوجه إلى حصن برغش"

* * *

جلست دونيا "أوراكا" شقيقة الملكين "الفونسو" و"سانشو" وقد أمسكت في يدها منديل تجفف قطرة من دموعها فرت من عينها على الرغم من جمود ملامحها وهي تسمع لفرناندو انسوريز ما حدث بين أخويها وكيف انتهى الأمر بأسر وليه الملك ألفونسو في حصن برغش.

"دونيا أوراكا يعلم الرب أننى لم آت هنا إلى سمورة لكي أدخل الحزن إلى قلبك، ولكن لعلمي بحصافة رأيك، ومكانتك عند الملك سانشو، ومدى قرب الملك ألفونسو إلى قلبك، فأنا على يقين أنك الوحيدة التي تستطيع إعادة الأمور إلى نصابها"

"لا أكتمك سرًا فرناندو فأنت ابن الكونت أنسوريز الناصح الأمين لأبي، إن أمر أخي سانشو قد استفحل، لقد رأيت في عينيه الغدر يوم قسّم أبي علينا مملكته، ولا أستبعد الآن بعد انتصاره على الفونسو أن أجده تحت أسوار سمورة"

"لا أظن يا مولاتي فهو يعرف مكانتك وحنكتك، قد يفعلها مع دونيا البيرة، أو مع مولاي غرسيه، ولكن معك لابد وقتها أن يكون قد أصابه الجنون"

"تريد أن تقول أنني سأكون وجبته الأخيرة بصيغة مهذبة، ليكن، ما هي اقتراحاتك؟"

"وهل هناك رأي أو اقتراح يحمل قيمة في ظل غياب مولاي الفونسو؟!"

"أيها الماكر لماذا لا تقول مباشرة أنك تريد إخراج الفونسو من سجنه؟"

"مولاتي إن سجن مولاي يعني أن هناك نية لقتله في لحظة من اللحظات، وصدقيني هذا سيعني حروب قاسية ستأكل أسرة مولاي فرناندو"

"إذن يجب أن أذهب إلى سانشو لأقنعه بتحرير الفونسو"

"تمامًا يا مولاتي"

"ليعيننا الرب على هذا الأمر، يالصغيرى الفونسو، كيف يقضي أيامه في سجنه؟"

* * *

على الرغم من الاستقبال الحافل الذي شهدته دونيا أوراكا منذ دخولها قشتالة إلا

أنها شعرت بأنها ضيف ثقيل أو لعل شعورها بأن دورها اقترب بعد سقوط أخيها ألفونسو، قد ولد لديها شعور بالغدر لمحته في عيون كل الموجودين، خاصة في عيون ذلك الفارس ثقيل الظل والمدعو رودريجو، لقد كان يرافق أخيها كظله بصورة تثير الضجر.

"لعل أخي يريد أن يجلس مع أخته الأثيرة بعيدًا عن هذا الضجيج وهذه الجموع"

"بالطبع أختي العزيزة"

وصفق مشيرًا إلى الجميع أن يخلوا القاعة، ثم جلس وهو يحك ذقنه وينظر في تمعن إلى أخته.

"مرحبًا دونيا أوراكا، لم أرك منذ زمن طويل"

"أنت من انشغلت عنا في فتوحاتك"

"هكذا، الآن أستطيع أن أتوقع لماذا جئت"

نظرت إليه في خبث

"حقًا"

"تريدين مني أن أطلق ألفونسو من محبسه"

"تمامًا، لقد أصبت"

"أوراكا، أنت تعلمين مكانتك عندي، وأنا بالمثل أُكِنُّ لك حبًا عظيمًا"

"أهذه مقدمة رفض"

"أنت تعرفين بالطبع أيضًا كم أحب ألفونسو"

"سانشو لا تحاول المراوغة، دعنا نتحدث صراحة، ما فعلت مع ألفونسو من استيلائك على مملكته أمر غير مقبول"

"وأنت تريدين أن أعيد له ملكه"

"أنا لست حمقاء وأعرف أن هذا أمر غير مقبول وغير قابل للنقاش"

"دومًا ما أعجبني عقلك الراجح"

"ولكن دعنا نعقد صفقة، أنا أعرف أن بقاء ألفونسو يشكل لك مشكلة كبيرة، فبقاؤه يجعل منه الملك الشرعي لمملكة ليون، ويجعل منك معتدى، وقتله قد يضر بصورتك أمام الكنيسة"

"أنت تسيئين الظن بي، فألفونسو مازال أخي"

"لعله كان من المفضل أن يموت في الحرب"

هز سانشو رأسه أن نعم في أسى، فاستطردت

"وبهذا يبقى وجود ألفونسو عقبة كئودًا"

تتهد في لوعة.

"لطالما أصبت كبد الحقيقة"

"أنا أمتلك الحل، ماذا لو خرج ألفونسو من حبسه وبقي بعيدًا عن أمر الملك لا يطلبه ولا يسعى إليه، يكون قد كفاك قتله وصرت أنت الحاكم الشرعي"

"وهل تظنين أن ألفونسو يقبل بهذا؟"

"أنا سأقابله وأقنعه"

"وماذا يضمن لي أنا أنه لن ينكث؟"

"أنا أضمن"

"لا أرى ذلك ضمانًا كافيًا، هل تظنينني طفلاً صغيرًا تعده أمه أن أخيه الصغير لن يضربه ثم .."

"أي ضمان تريده؟"

"أن يرتدى حلة الرهبان"

"مستحيل بالتأكيد سيرفض"

"هذا شرطي، ثم إنني قد أسرته وهو يرتدي هذه الحلة ولن تكون غريبة على جسده"

"إذًا ابعثنى إليه لعلى أستطيع أن أقنعه"

قام وانحنى معابثًا

"السمع والطاعة دونيا أوراكا"

"الأمر لا يحتمل العبث سانشو"

"وأنا جاد أكثر مما عرفتني من قبل"

"إذًا متى أستطيع أن أذهب إليه؟"

"وقتما تشائين"

"إذًا لنرحل غدًا صباحًا"

"وأنا سأرافقك إلى هناك لأطلقه من فوري لو وافق، لو....."

* * *

الراهب

كان ألفونسو راقدًا على فراش مبسوط تحت النافذة يراقب السماء عندما سمع صرير الباب لكنه لم يكلف نفسه مجهود النظر للقادم، فمن ذا الذي يذكره هنا سوى الحرس الذين يقدمون له الطعام، بل لعلهم قد ينسونه ذات يوم حتى يموت دون أن يشعر به أحد، كيف صار به الأمر إلى هذا الحال؟!

"يا لأميري الصغير البائس"

أغمض ألفونسو عينيه ليقبض على الصورة التي جالت بباله، دونيا أوراكا كم هو جميل صوتها في أذنه.

"هل وصل بي الحال إلى درجة أني صرت أسمع صوت أوهامي"

"أنا حقيقة ولست وهمًا"

انتبه ألفونسو فجأة، وجلس وقد شلته المفاجأة عن اتخاذ رد فعل مناسب، ثم قال هامسًا، وقد ترقرقت الدموع في عينيه

"أوراكا الحبيبة"

تقدمت منه في هدوء ثم مسحت وجهه في ود

"نعم أخي الشجاع"

"أرايت كيف انتهى بي الأمر؟"

هزت رأسها في أسى

"إن الحياة هنا كالجحيم، لا أسمع سوى صوت الحرس العابثين، الوقت ثقيل الوطأة، هل تعلمين كيف كنت أقضي الوقت؟ ما بين مراقبة السماء وتذكر أيامنا الخوالي، وتكرار أحاديث الصبا بصوت مرتفع، ولا أنتبه إلى نفسي إلا وقد اجتمع الحرس خلف الباب ليستمعوا إلى هذا الملك المخبول، فلا أجد سوى تأمل هذه النقوش التي تركها المسلمون عندما كانوا هنا حتى إنني حفظتها"

"انصت لي يا ألفونسو: يجب أن تخرج من هنا"

"كم أنت عطوفة يا أوراكا، لقد انتهى ألفونسو لا تشغلي بالك بي"

"أنا جادة"

"وهل سيطلقني سانشو أم سأفر، هيهات"

"بل سيطلقك سانشو"

"كم أنت طيبة يا أوراكا، وهل أخبرك هو بنفسه بذلك أم أنك تتمنين"

"بل هو من أرسلني"

"وما الذي يمنعه من المجيء"

"لقد جاء معي غير أنه يعرف أنك غاضب فلم يرد إثارتك، ولتفكر بتعقل في عرضه دون انفعال"

"عرضه!!"

"هو يعرض تحريرك مقابل..."

"وهل ترك لي ما أقدمه له"

"إنه يريدك أن تلبس حلة الرهبان"

"وأنت وافقته!! إنه يريد دفني حيًّا بهذه

الطريقة، بل فوق ذلك يكسب عطف الكنيسة"

"اسمع الفونسو قَولي أنا إن الأولوية لإخراجك من هذا المكان غير الآمن، حتى لا نستيقظ يومًا على خبر قتلك"

"فليقتلني إن أراد"

"هو لا يريد ذلك، ولكنك لم تر هذا الغدر في عيون المحيطين به"

"إذًا فالدير هو المكان الآمن!!"

"على الأقل حتى نستطيع إبعادك عن أيدي هؤلاء"

"ثم؟"

"ثم اترك الأمر لأختك أوراكا ثق بي ولن تندم"

وانتبه كلاهما على دخول سانشو

"إخوتي المقربين، كيف حالك أيها المبارك؟"

نظر ألفونسو بازدراء لسانشو

"أظن أن أوراكا قد أخبرتك؟"

"نعم أخبرته وقد وافق"

نظر ألفونسو في عجب لجرأتها، ولكنه كان واثقًا بها فصمت فلم يعد هناك ما يخسره

"هل تعلم يا أخي منذ رأيتك في حلة الرهبان وأنا شعرت أنك ستكون قديسًا تعم بلادنا البركات من حضوره"

"سانشو يجب أن يخرج ألفونسو من هنا"

"سيخرج دونيا فورًا وأنا جهزت الموكب

الذي سيقله إلى الدير"

"أي دير؟"

"الذي يشعر فيه بالسكينة ليعبد الرب"

"إذًا ليذهب إلى دير ساهاجون"

"لماذا ساهاجون؟"

"لأن رهبانه أتقياء وسيحبون أخي"

"لك هذا يا دونيا"

ثم صاح برجاله

"يا رجال أعدوا الركاب؛ لنحمل أخي القديس ألفونسو إلى دير ساهاجون"

* * *

لعل الحياة بين الرهبان لم تكن بهذا السوء

الـذي تخيلـه، لقـد كـانوا ودوديـن جـدًا معـه، ومـن ذا الـذي لا يكـون ودودًا مـع راهـب كـان يومًـا ملكًـا تـرك متـع الحيـاة في ريعـان شـبابه ليتفـرغ لخدمـة الـرب، قليلـون هـم مـن يفعلـون ذلك حتى ولـو كـان البديل المـوت: لا يمنـع أنهـم في البدايـة تشـككوا في نيتـه في البقـاء هنـا، لكـن مـع استسـلامه الشديد وهـدوئه أدركـوا أنـه بـاقٍ لا ريـب. حتـى هـو وإن كانـت نفسـه المتواثبه لا تقبل كل هـذا، إلا أنـه استسلم فلـم يكـن أمامـه إلا أن يثق في أختـه أوراكـا، لقـد طلبت منه هـي ذلك، بالتأكيد لن تنساه، لا لن تنساه.

"إلى أين ذهبت بفكرك يا مولاي الفونسو"

"لم أعـد أنعـت بمـولاي يـا أخـي أنـا أرتـدي

مسوح الرهبان مثلك"

"هذا يرفع من قدرك أكثر"

"دعك من هذا كله ألم تعدني أن تعلمني الزراعة"

"وهل يعقل أن الملك ألفونسو يعمل كالرجال العاديين في الزراعة"

"لعله شيء أمضي فيه وقتي"

"جلالتك تمضي وقتك في التنسك، ودع أمور الحياة هذه لنا، يكفي أنك جلبت لنا معك الأمان فما كان أحد ليهتم بوضع حراسة على دير لحمايته، ولكم عانينا من المغامرين وبقدومك وفر الملك سانشو لنا فرسان لحمايتنا"

"بل لمنعي من الهرب"

"رب ضارة نافعة، إنني لم أرك منذ جئت إلا ناسكًا زاهدًا في الحياة، وطالما أن جلالتك لم تفكر في الهرب أو تخطط له فلعل الرب سخر هؤلاء لحمايتنا رغم أنوفهم"

"ما هذه الضجة؟"

"لا أعرف يا مولاي سأتقصى الأمر وأخبرك"

لم يكد الراهب يتحرك حتى أقبل راهب آخر مسرعًا:

- "مولاي الفونسو هناك من يريد لقياك"

"ما الأمر؟"

"إنه أحد التجار جاء بخير عميم، ويقول إنه نذر ذلك للرب، وعندما عرف بوجودك هنا أراد أن يلتمس منك البركة"

"مني أنا!!"

"هل أحضره"

رد ألفونسو ساخرًا

"دعه يقبل ليناله بعض بركاتنا"

أسرع الراهب وأحضر التاجر الذي دخل وهو مخفيًا وجهه حتى تشكك ألفونسو فيه

"أسألك البركة والنماء أيها القديس"

"من؟!! فرناندو!!"

"مليكي مولاي ألفونسو"

انحنى فرناندو للملك بعد أن كَشف عن وجهه في سعادة

"هل أستطيع أن أخلو بالملك قليلاً"

"بالطبع أيها الفارس النبيل، هيا يا أخي نتركهم"

"اجلس يا فرناندو"

"كيف حال الملك الراهب هنا؟"

"إنهم ودودون جدًا"

"بالطبع فدونيا أوراكا تدفع بسخاء"

"دونيا أوراكا!!"

"إنها ما كانت لتتركك لحظة، إنها تفكر وتخطط منذ ذهبت إليها بخبر إسرك أعدّت لقدومك هنا حتى قبل أن تلقى الملك سانشو"

"ولكن سانشو هو من ..."

"وهنا تكمن عبقرية مولاتي دونيا أوراكا لقد جعلت سانشو يقترح ما تريده هي دون أن يتصور أنها من يخطط لذلك"

"ياللسماء"

"ثم جاءت الخطوة الثانية، لقد أرسلت هذه القافلة؛ ليبقى أحد رجالها هنا مكانك،

وتخـرج أنـت في ثيابـه؛ لتخـدع الحراسـة الـتي تركها سانشو، وطالما أن أحدًا لا يدخل الدير فلن يكتشف أحدًا هذا لنكون وقتها ابتعدنا بما فيه الكفاية"

"ولكـن هـذا يجـب أن يـتم بمعرفـة كـبير الرهبان حتى لا ينفضح الأمر"

"ها من تتحدث عنه قد جاء بنفسه"

أقبل راهب عجوز يتوكأ على عصاه

"مرحبًا بمبعوث دونيا أوراكا"

"دونيـا أوراكـا تـشكر لكـم اهتمـامكم بأمر أخيها الملك ألفونسو"

"على الرحب والسعة يا ولدي"

"هل كنت تعرف يا أبتاه؟"

"لقد أوصتني الدونيا بالكتمان"

"والآن دونيا تريد إتمام بقية الاتفاق"

"إن فضل الدونيا أكبر من أن يذكر ولكن هل لي أن أسأل ما مصيرنا إذا علم الملك سانشو بما حدث"

"دونيا لاتنسى خدمة من خدموها بإخلاص. فبمجرد خروجنا من هنا سيذهب رسول إلى الملك سانشو، وآخر إلى البابا ليبرئكم من هذه الفعلة، وإعلان حمايتها لكم، ثم في النهاية يبقى أنكم يمكنكم إنكار معرفتكم بالأمر"

"وأين تنوون الذهاب؟ هذا للاطمئنان فقط"

"إلى دونيا أوراكا بالطبع"

"فليبارككم الرب ومتى سترحلون؟"

"أرجو ألا يكون الملك ألفونسو متعبًا حتى

نستطيع الخروج الآن".

* * *

بين أحد الممرات الجبلية توقف ركب الملك ألفونسو، ونزل الفارس فرناندو من على فرسه لينحني أمام الملك الذي كان يرتدي ثياب الرجل الذي تركوه بالدير، وسار في وسط رجال فارسه فرناندو على أنه تابع له

"ليغفر لي مولاي فظاظتي وسوء أدبي ولكني كنت مضطرًا لذلك أمام الحرس".

"أستطيع أن أقدر ذلك"

"يستطيع مولاي تغيير هذا الثوب بهذه الثياب التي تليق بقدره لقد أعددتها تحسبًا لذلك"

"لم يَفُتْك شيء"

ارتدى الملك ألفونسو ثوبه الجديد

"هذا جيد جيد"

"لنواصل رحلتنا الآن"

"ولكن هذا ليس طريق سمورة"

"هذا صحيح"

"ولكنك أخبرت كبير الرهبان بأننا سنذهب إلى هناك"

"لأنه سيشي بنا مع أول فرصة لتبرئة ساحته، غير أن سانشو أول ما سيبحث عنك سيبحث عنك هناك"

"ودونيا تعلم؟"

"تعلم وهي التي حذذت المكان"

"ولكنه قد يؤذيها"

"لا أظن. آخر ما يستطيع فعله الآن هو إرسال العيون للبحث عنك، إنني أحاول تخيله

عندما يصله خطاب الدونيا"

"لماذا؟"

"لأنها كانت تقول فيه لقد وعدتك الا يحاول ألفونسو اعتراض طريقك، وأنا لم أخلف وعدي، فقط نقلت أخي إلى مكان افضل، أما لو حاولت أنت اعتراض طريقه فلن تجد إلا إياى"

"إنها ستثيره عليها"

"لن يفعل شيئًا الآن، فهو يستعد لغزو جليقية"

"سيحارب غرسيه أيضًا"

"إن أطماعه ليس لها حدود"

"وما أدراك إنه لا يستعد لغزو سمورة"

"لأن دونيا هي التي أخبرتني وهي تعلم الكثير"

"وما هو المكان الأفضل الذي تعنيه أوراكا"

"المكان الذي سنذهب إليه الآن"

شعر ألفونسو بالضيق من كل هذا القدر من الغموض فرد مغضبًا

"أين؟"

"إلى طليطلة"

"إلى بلاد المسلمين"

"هذا أفضل مكان"

"إنهم قوم غدر لا يتوقفون لحظة عن الكيد لبعضهم"

"هم حقًا لا يتوقفون لحظة عن الكيد لبعضهم، غير أنهم لا يردون مستجيرًا بهم، أنت لا تعرفهم يا سيدي"

"إن هذا أمر خطير"

"دونيا تقول لك ثق بدونيا أوراكا ولن تندم"

* * *

طليطلة

أشرقت شمس طليطلة كجوهرة التاج فوق أسوارها المرتفعة التي تكلل أحوازها الخضراء، ومنذ بدأت أسوارها تلوح للركب الذي كان يرمقها من بعيد بترقب وخوف، بترقب الوصول للأمان، والخوف من كونه أمان زائف، وكلما ازدادوا اقترابًا أخذتهم الرهبة من عظمة الأسوار ورسوخها، وعندما أشرفت أبواب المدينة أوقف الملك ركبه.

"والآن كيف تنوي مقابلة المأمون؟ وماذا سنقول له؟ يجب أن نكون مستعدين"

"معي كتاب من دونيا أوراكا سأسلمه له"

"أرني هذا الكتاب"

"هاهو يا مولاي"

"إنه مكتوب بلغة العرب من الذي كتبه"

"سسنندو يا مولاي"

"ذلك الرجل الذي ..."

"هو يا مولاي"

"الداهية! هذا يفسر الكثير"

وارتفع صوت أحد الرجال المحيطين بهم

"هناك فرقة من الفرسان قادمة يا مولاي"

اقترب الفرسان منهم وأحاطوهم وتحدث أحدهم بدا عليه أنه قائدهم:

"من أنتم وماذا تريدون؟"

"نحن رسل من قبل دونيا أوراكا نحمل رسالة إلى مولاي المأمون"

"ملكة سمورة"

"نعم يا سيدي"

نظر قائد الفرقة إلى فرسانه ثم وجه حديثه إلى أربعة منهم:

"رافقوهم إلى قصر الخليفة"

"أمرك يا سيدي"

انطلق الفرسان وهم يحيطون برسل ملكة سمورة، وأشار القائد إلى الجند التي تحرس الأبواب ليفتحوا الأبواب ليمر الركب، ويجتاز طرقات المدينة المزدحمة، كاد جمال المدينة أن يأخذ بلبهم، عيونهم كانت معلقة بكل بيت

وبكل حانوت، وتلاقت عيونهم بعيون أهل المدينة العاملين بجد في كل مكان، وارتفع صوت الأذان من مسجد طليطلة الجامع فارتجفت فرائصهم، وأشرف عليهم بناؤه الضخم؛ فذهلت أعينهم، وبدأت الخيول تجتاز الآكام والجنات حتى وصلت إلى قصر منيف البنيان، فانسل أحد الفرسان إلى الداخل وتحدث إلى حرس القصر ثم عاد ليصاحبهم بالخارج، وطال بهم الوقوف فهمس مخاطبًا فرناندو

"هلا رأى سانشو الأحمق كل هذا"

خرجت فرقة من الفرسان من القصر لتصحب الرسل وانطلقت الأولى عائدة، قادهم الفرسان بين جنات القصر واستقبلهم بالطريق

رجل بدا عليه الوقار يقف خلفه حارسان عظيما البنية

"مرحبًا برسل ملكة سمورة، الخليفة سيقابلكم بقاعة الحكم، مَن الذي يحمل الرسالة؟"

"كلانا يا سيدي"

"فلتتبعاني"

أشار إلى الجنود أن يبقوا مع الآخرين، وانطلق هو وحارسيه بهم بين ممرات القصر حتى دخلوا قاعة حارت أعينهم في تكوينها المدهش.

"هل يملك الرب مثل هذا في السماء؟!"

نظر فرناندو إلى ما حوله ثم رد على ألفونسو:

"لقد ظننت ونحن نمر بالمدينة أنه ما من شيء يفوق ما بها حتى دخلت القصر فعلمت أنني لم أر شيئًا خارجه"

وارتفع صوت الحاجب ليعلن وصول الخليفة، ودخل المأمون القاعة، وجلس على عرشه وإلى جواره المترجم.

"مرحبًا برسل أوراكا ابنة حليفي فرناندو"

تقدم الفارس فرناندو وركع أمام المأمون ورفع يده بالرسالة، فتقدم منه أحد العبيد، والتقط من يده الرسالة وسلمها للمأمون الذي قرأها ثم نظر إليهم

"من منكم ألفونسو؟"

تقدم ألفونسو باحترام وانحنى انحناءة سريعة أمام المأمون:

"مرحبًا بك يا فتى لقد أحزننا ما حدث لعرشك"

"هذا من جزيل كرمكم"

"ولكن من الذي كتب هذا الكتاب؟ فأنا لا أعرف أن عندكم من له مثل هذا الأسلوب إلا سسنندو"

"نعم هو يا سيدي"

"صنيعة بلاط إشبيلية! إذن هو مازال يخدم أسرة فرناندو كما خدم فرناندو من قبل"

نظر إليهم المأمون فى دهاء واستطرد

"لقد شب هذا النصراني الخبيث في بلاط المعتمد ، بل ونال ثقته وصار رسوله إلى فرناندو ، ولكنه فضل أن يعيش في كنفكم"

"هذا لأنه لم يجرب العيش في بلاط

جلالتكم"

ضحك المأمون في جذل

"لكم أنت لمّاح، ولكن هل تعلم كم المضايقات التي قد نتعرض لها من أخيكم سانشو"

هنا تدخل فرناندو قائلاً

"إن ما سمعناه عن كرمك يفوق أي إعتبار"

"من المتحدث؟"

"إنه مستشاري فرناندو أنسوريز يا صاحب الجلالة"

"على الرغم من لباقته إلا أنه لم يزل صغيرًا"

"كلانا يرتوي من حكمة جلالتكم"

"ولكنك لم ترد على سؤالي"

أطرق ألفونسو قليلاً ثم أجاب في وجوم

"أعلم يا صاحب الجلالة"

"إذًا لتعلم أيضًا أننا لا نرد مستجيرًا، ولنتعلم أيضًا أننا أكفاء للدفاع عن ذلك، ولن يستطيع سانشو النيل منا حتى لو ظل ينتسف في أراضينا لسبعة أعوام"

"هذا ظننا بك دومًا يا صاحب الجلالة"

"سأخصص لك قصرًا إلى جوار قصري؛ لتكون بعيدًا عن ضجيج المدينة تحيا فيه إلى أن يشاء الله، وستجدني خير خلف لوالدك ولو أردت شيئًا لا تتردد"

انحنى ألفونسو في خضوع

"أشكرك يا صاحب الجلالة"

"تستطيع الآن أن تذهب لتلتمس بعض الراحة"

* * *

اجتمع الناس في مسجد طليطلة الجامع من حول أبي جعفر أحمد بن سعيد اللورانكي؛ ليستمعوا إلى درسه في شغف، وما كاد أن يفرغ من حديثه حتى انهالت الأسئلة عليه من المستمعين المتعطشين إلى علمه، وهو يرد في حنكة وهدوء حتى وقف أحد الفتية بصورة مستفزة:

"ما قولك يا إمام في من ينزل عدو الله في بيته؟"

نظر اللورانكي إليه محاولاً استشفاف ما وراءه.

"سؤالك هذا يحمل في طياته خبرًا"

"لقد نزل ابن ملك قشتالة الذي استباح ديار

المسلمين ضيفًا على المأمون"

"ومن أين لك بخبر مثل هذا؟"

"طليطلة قاطبة ليس لها حديث سوى عن ضيف المأمون"

"لازال حديثك غامضًا يا فتى"

"وأنا لم أحصل منك على جواب سؤالي يا إمام"

"لكي أجيبك يا بني ينبغي أن أفهم المسألة جيدًا"

"لقد أنزل المأمون ضيفًا أحد قصوره، وانتشر الخبر أن هذا الضيف هو ألفونسو ملك ليون"

"ولكن الذي تطرق إلى سماعنا أنه رهن محبس أخيه"

"لقد جاء هاربًا ليلوذ بالمأمون"

وهنا تداخل فتى آخر في الحوار

"أهم يقتلون ذوينا ونحن نستضيفهم في القصور"

وعاد الأول للحديث والغضب باديًا على وجهه

"لقد مات أهلي كلهم في إحدى غاراتهم على أرضنا بأحواز طليطلة"

"هل تقبلوا بذلك يا فقهاء طليطلة؟"

وارتفعت الأصوات وتداخلت، وعمت الفوضى؛ فاضطر اللورانكي لفض مجلسه وخرج من المسجد، ومسحة من الهم تعلو وجهه، وامتطى دابته، وسار هائمًا في المدينة حتى توقف بأحد الأبواب على بستان واسع

فطرق الباب

"السلام على أهل الدار"

انفتح الباب ليخرج رجل وقور

"وعليكم السلام يا لورانكي تفضل بالدخول"

خطا اللورانكي بين أشجار البستان وأحواضه.

"لكم هو بديع تنسيق بستانك يا ابن بصّال. لحري بالمرء أن يعرف أنه لن يجد هدوء النفس إلا في بستان الحاج أبي عبدالله إبراهيم بن بصّال"

"أشكرك على إطرائك يا صديقي"

وما إن جلس الرجلان في إحدى قاعات البيت حتى سأل ابن بصّال زائره

"مالك يا لورانكي؟ إن هناك أمرًا يبدو على وجهك"

"هل سمعت بضيف المأمون؟"

ظهر الضيق على وجه ابن بصّال

"سمعت به صباح اليوم عندما كنت أزور بساتين قصر المأمون، فقد وفد هذا الوافد مساء الأمس"

"إذًا فهذا الخبر صحيح"

"ما رأيت أحدًا من علماء طليطلة اليوم إلا رأيته غاضبًا من ذلك الأمر"

"لقد سألني اليوم سائل هل تقبلوا بذلك يا فقهاء طليطلة"

"إن علماء طليطلة وأعيانها سيجتمعون غدًا في الصباح بأبي سعيد بن الفرج في المسجد

الجامع"

"ولماذا لا نذهب إلى يحيى بن ذي النون مباشرةً"

"إن أبا بكر بن الحديدي لا يحبذ الذهاب للمأمون مباشرة، ويقول إنه من الأفضل أن نجتمع مع ابن الفرج ليوضح لنا الأمور وينقل ما نريد إلى المأمون"

"وهل يأنف ابن ذى النون من لقائنا؟"

"يخشى ابن الحديدي أن يثير أحدهم غضب المأمون"

"وهل يظن أننا نخشى غضبه؟ ثم لماذا لا يحضر ابن الحديدي مع ابن الفرج؟"

"إن الصبح لقريب يا لورانكي"

* * *

اجتمع جمع غفير من علماء طليطلة وأعيانها

بأبي سعيد بن الفرج بالمسجد الجامع قلب طليطلة النابض، وقد ظهر الغضب على وجوههم وابن الفرج يحاول بحلمه المعهود امتصاص غضبهم حتى بادره الحاج أبو عبدالله إبراهيم في غضب

"يا سبحان الله نقول لك إن عدو الله ينزل عند المأمون وتقول يجب أن يعامل الأمر بروية وحكمة"

"يا حاج إبراهيم تمهل عليّ الأمور لا تناقش هكذا نحن في بيت الله"

رد أبو جعفر سعيد بن أحمد:

"الحاج أبو عبدالله محق يا أبا سعيد، لن أحدثك عن الزروع التي انتسفها أبوه فرناندو، ولا عن الدماء التي سفكها أثناء ذلك، ولكن

ألم تفكر في حرائر المسلمين اللائي لازلن سبايا عندهم؟!"

"وما للرجل وما فعل أبيه يا لورانكي؟"

"ألم نكن نحمل له الجزية!"

"إنها هدايا وليست جزية"

"هدايا ليغري بابن هود ويذهب المارق ليدمر بلاد المسلمين"

"ألم يفعل ابن هود صاحب سرقسطة المثل ويغريه بنا؟!"

"وهل الخطأ مبرر للاستمرار في الخطأ؟ إن أمرنا عجيب يا ديار الإسلام نأتي بعدونا وندفع له ليستبيح ديارنا"

"لماذا تريدون أن تنكأوا الجراح المندملة"

عاود أبو عبدالله الحديث من جديد بعد أن

تمالك أعصابه قليلاً:

"وهل اندملت حقًّا؟!"

"أفهم غضبكم يا علماء طليطلة وفقهاءها وأعيانها، لكن الأمر لا يتعدى قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٦].

"ألم يكن من الأولى اتباع نفس المنهج مع إخواننا المسلمين بدلاً من قتالهم"

"من تقصد؟"

"ابن هود وغيره"

"وهل استجار بنا هؤلاء؟ لقد قاتلونا"

"وهل يدخل في الآية إسكانه قصرًا منيفًا"

"يا قوم: أكرموا عزيز قوم ذل"

هنا عاد اللورانكي للحديث ووجه كلامه لأبي عبدالله وهو ينظر إليه

"وما سيأتي أعظم يا ابن البصّال".

"ما سيأتي خيريا لورانكي. إنك تشتري ولاء ليون بحفظ ملكهم"

"تقصد من كان ملكهم، ولعلنا غداً نجد أهل ليون الذين اشترينا ولاءهم جاءوا لغزو بلادنا"

"بل سيصيرون حلفاءنا إن شاء الله"

"لا أدري لماذا تسمون الأمور بغير أسمائها؟"

هنا أكمل أبو عبدالله:

"هذا يحدث منذ سكن الفقهاء القصور"

"سامحك الله يا ابن بصّال، والآن ماذا

تريدون؟"

"يا سبحان الله! أوفي ماذا نتحدث منذ انبلاج الفجر؟"

"أريد مطلبًا واضحًا أحدث فيه المأمون، أريد أن أذهب إليه وأقول - مثلاً: له إن أبا جعفر اللورانكي والحاج أبا عبد الله بن البصّال، بل ووجهاء طليطلة قاطبة يريدونك أن ترد كتاب الله وأن تغدر بمستجير"

وتدخل أحد الجالسين في الحديث:

"كأن المأمون يبالي بكتاب الله"

"اتق الله يا هذا لا يصح قول هذا"

رد اللورانكي في غضب على الرجل

"اصمت يا رجل إنك تقذف غائبًا"

ثم التفت بحديثه إلى ابن الفرج

"لنتحدث بالعقل يا أبا سعيد ، إن مثل هذا الرجل في بلادنا يسمح له بمعرفة أسرارنا ، ومن أين قد تؤتى مدينتنا ، هب أنه عاد إلى ملكه ذات يوم ألن يعرضنا هذا للخطر"

"بلى"

"لن نقول يطرد الرجل ولن نقول يخذله ، ولكن نطلب لأنفسنا الأمان ، يقصيه بعيداً عن مدينتنا"

"أظننا هكذا وصلنا إلى الروية والحكمة ، نضع اقتراحات ومن ثم نبحث إمكانية تطبيقها"

"يجب أن تكون أنت أول من يهتم لأمن المدينة فأنت الذي يدبر أمر الجند"

"وهل أخبرك أحد أني تجاهلته ، لتعلم أنني

قبل لقائكم كنت أحدث ابن الحديدي في هذا الأمر وكلانا مهتم به"

"وبعد"

"لقد توصلنا إلى نفس الأمر تقريبًا واتفقت أنا وهو أن أنقل إليه أفكاركم، ثم ينقل الحديث هو للمأمون، فأنتم تعلمون كم يميل المأمون إلى رأيه على الأقل سيتقبل منه الحديث عما يتقبله من أينا"

"ليعينه الله على فعل الصواب"

* * *

خرج ألفونسو للتريض في بستان القصر الذي خصصه المأمون لإقامته، وعلى الرغم من شعوره بغرابة الزي الذي يرتديه إلا أنه كان يشعر بسعادة غامرة لم يعرفها منذ أمد بعيد،

إنه لا يستطيع نسيان ما فعله أخيه، لا يستطيع نسيان الأسر والحياة مع الرهبان، لقد عاد يشعر بأنه ملك وإن لم يكن متوج، حدائق لا يعرفها في أرضه، ولم ير مثل غرسها في أي مكان، وقصور لم ير ما يماثلها بنيانًا وترفًا، وقادته قدمه إلى كرمة في قلب الحديقة فجلس ليتأمل ما حوله حتى إنه لم ينتبه إلى مستشاره فرناندو عندما اقترب منه

"مولاى ألفونسو"

"فرناندو كيف حالك؟"

"أنا سعيد طالما أن مولاي يشعر بالسعادة"

"إن الأيام هنا تكاد تمر كالنسيم"

"أسعد الرب أيام مولاي"

"كلما أتذكر الأوقات التي قضيتها في

الأسر ومع الرهبان أشعر بامتعاض ، ما كنت أصدق أن القى كل هذا الإكرام في بلاط المأمون لكم كانت أوراكا صادقة"

"إن مولاتي دونيا أوراكا صاحبة عقل راجح"

"ولكنني أظن أن صاحب هذه الفكرة هو سسنندو وإلا من أين تعرف أوراكا أن استقبال المسلمين لنا سيكون بهذا الشكل"

"إن مولاتي لم تضيع الوقت فبمجرد أن علمت بما جرى لك حتى بحثت عن الرجل لمعرفتها بولائه لأبي لتسأله عن رأيه"

"وبالطبع اقترح أن أذهب إلى طليطلة"

"على الفور ودون أي تردد ، وعندما تشككت مولاتي في أن تجد الأمان هنا

أخبرها أنها لا تعرف المسلمين، هو تربى بينهم ويعرف كيف يفكرون، وعلى ذلك كتب لها الكتاب الذي حملناه إلى المأمون"

"ولكن لماذا ترك هذا الداهية كل هذا الترف وجاء إلى جليقية؟"

"الحسد والمشاحنات بينه وبين رجال المعتمد"

"كان من الأدعى أن يأتي هنا مثلاً للمأمون"

"إنك لا تعرف كيف يفكر هذا الداهية"

شرد ألفونسو في المشهد المحيط وهو يقول

"لقد سمعته يقول لأبي ذات مرة إن كل هذا كان لجدودنا واستلبه المسلمون منا"

"لقد سمعت أن جدودنا ملكوا حتى أفريقية والشام"

"كل هذا الجمال كان لنا"

"ألم تــر يــا مــولاي كيــف ترقــد المدينــة كصغير نائم بين يدي نهر التاجُه؟!"

"يا للرب أرأيت أنت هذه النقوش التي نقشت على المرمر في بلاط المأمون، والزجاج الذي يشبه البحر كيف أجروا فيه هذه الرسوم، لقد كنت أشعر أن هذه الحيوانات في النقوش والرسم آتية إلي"

"حتى كتاباتهم على الجدران تكاد تنبض تشعر بها تكلمك حتى لو لم تفهمها"

"لقد كانت مديحاً للمأمون"

"هل لي أن أتعلم كيف عرف مولاي ذلك؟"

"لقد حفظت بعض الرسوم وأنا واقف كما كنت أفعل في برغش وصورتها للمترجم فأخبرني بمعانيها، لقد كانت مديحاً للمأمون"

"ارجو أن ينسى مولاي تلك الأيام النكدة ببرغش"

"صعب"

"بل سيكون سهلاً فالمأمون يدعونا غدًا على مجلسه في المساء ولقد سمعت العجب عن مجالسه"

"ماذا سمعت؟"

"أفضل أن أترك مولاي يرى بنفسه المفاجآت السارة"

"يبدو أنك تعلمت من دونيا حياة المفاجآت"

"بالمناسبة لقد خرج رسولك إلى مولاتي دونيا هذا الصباح"

"جيد لكم أتحرق شوقًا لمعرفة أخبار سانشو"

"لقد أوصيت الرسول بتتبع أخباره، أما الآن فليأت معي مولاي ليرى كيف يحيط نهر التاجُه بالمدينة من ثلاث جهات. فلا أظن أن مولاي يريد أن يفوت مثل هذا المنظر الرائع".

* * *

ضيف المأمون

كان الفقيه أبو بكر بن الحديدي ينتظر المأمون في الردهة المؤدية إلى القاعة التي سيقضي فيها ليلته مع ضيفه.

"السلام عليكم يا خليفة المسلمين"

"وعليكم السلام يا ابن الحديدى هل وافقت أخيرًا أن تقضي الليلة معنا"

"أنت تعرف يا سيدي أن ما كلفتني به من مسئوليات لا يسمح لي بمثل هذا"

"أنت وشأنك لكن لتعلم أن المجلس سيكون مميزًا، فمنذ زمن طويل لم يجتمع هؤلاء. فابن أرفع رأس، وابن لبّون وعامر ابن الفرج حاضرين، لقد جاء أبو بكر بن عبدالعزيز من بلنسية ليحضر هذا المجلس"

"إن مولاي يرفع شأن أي مجلس يجلس به"

"إذًا فانتظارك هنا لأمر"

"أدام الله عز مولاي"

"بالله يا فقيه لو كان أمرًا يثير الغم فأجله إلى باكر حتى لا تفسد ليلتي، فأنا لا أريد أن ألقى ابن ملك قشتالة وأنا عابث الوجه"

"إن الأمر يتعلق به يا مولاي"

"ماذا هنالك؟"

"وجهاء المدينة وعلماؤها يرفضون إقامته

بها"

"هل يريدون مني أن أطرد ضيفي؟"

"أبدًا يا مولاي فقط هم متخوفون من أن يعرف نقاط ضعف المدينة من إقامته بها، وينقل هذا إلى من يترصدها"

"انتبه إنك تتكلم عن ملك، وليس عن عين قد يدسها عدو"

"لقد أصاب مولاي. ملك قد يعود إلى ملكه، ويعادي بلادنا يومًا، ووقتها سيكون عليمًا بكل أسرارنا"

"ماذا تريدون يا ابن الحديدي؟"

"فقط أن يقصيه الملك بعيدًا عن المدينة"

"ألم أفعل ذلك! لقد أسكنته قصرًا بعيدًا عن المدينة"

"ولكنه يا سيدي يجول كما شاء بالمدينة"

"ويحكم هل أقيده بالقصر؟ لا تحدثني مرة أخرى في هذا الأمر"

"أمر الخليفة"

"ألن تحضر مجلسي؟"

"ليلتمس الخليفة لي العذر"

"أفهم، أفهم تستطيع الذهاب يا ابن الحديدي"

"السلام على الخليفة"

"وعليكم السلام"

وظهر على باب القاعة ابن أرفع رأس

"ألن يضيء مولانا المأمون بنوره ليلتنا"

اتجه المأمون بحرسه وخدمه ومن يحيطه من العبيد والقيان إلى البهو الذي اجتمع به ضيفه،

كانت تتوسطه بحيرة في وسطها قبة أعدت لمجلس الخليفة ينساب الماء من فوقها كالغلالة، والشموع تظهر من داخلها، اتجه الملك إلى مجلسه تحت القبة من المنفذ الوحيد الذي لا ينزل منه الماء فقالت له القينة في دلال

"ماذا يحب مولاي أن يسمع؟"

"طالما أنني رأيت أول من رأيت بهذا المجلس ابن أرفع رأس لنسمع موشحة من نظمه"

"هل أغني له "من علق القُرطا" أم "العود قد ترنم""

هنا تكلم ابن ارفع رأس

"ألا تحفظين إلا هما؟"

"بل أحفظ كل ما قلت"

"إذن تغني بمديحي للمأمون"

"يبدو أنك تريد العطاء بدون أن تسمعنا شيئًا يا ابن أرفع رأس"

"وهل يسمع مثل صوتي إلى جوار مثلها يا أمير؟! تغنّي يا جارية"

أشارت القينة إلى العازفين وتغنت

"دعوا الملوك وأبناء الملوك فمن أضحى على البحر لم يشتق إلى نهر

ما في البسيطة كالمأمون ذو كرم فانظر لتصديق ما أسمعت من خبر

يا واحدًا ما على علياه مختلف مذ جاد كفك لم نحتج إلى المطر

وقد طلعت لنا شمسًا فما نظرت عين إلى كوكب يهدي ولا قمر

وقد بدوت لنا وسطى ملوكهم فلم نعرج

على شذر ولا درر"

ابتسم المأمون وانتشى وجهه ثم نظر إليها

"أحسنت يا جارية أسمعينا ما شئت"

"لم يأكل الخَنْطا

ولا رعى السِّنْرا

ولا رعى الأزْطى

مذ سكَن القَصْرا

يا قومُ بي تَيّاه

لماه معسولُ

الهجرُ منْ هجراه

والذنبُ محمولُ

يدري الذي يهواه

انه مقتولُ"

لم يكن ألفونسو يفهم الكلمات لكنه كان يتمايل طربًا معها ، وبعد أن انتهت من الغناء مال عليه جاره في المجلس أبو بكر بن عبدالعزيز

"هل تحب أن أشرح لك معانيها ؟"

"حتى دون أن أفهمها إنها أخاذة"

"وستحبها أكثر لو عرفت"

"هل تعلم أنني في غاية السرور أن وجدت من يجيد لغتي"

"لقد تعلمتها عندما كنت كاتبًا قبل أن يكلفني المأمون بأمر بلنسية"

"أنا أيضًا بدأت ألتقط بعض الكلمات من العربية"

"إن الحديث بدون مترجم أمر شيق فأنت

تضمن الا ينقل أسرارك أحد"

"قل لي هل ترى هذا الرجل هناك"

"تقصد أبو عامر ابن الفرج"

"لا أعرف اسمه ولكن ألاحظ أنه ينظر إليّ نظرة غير مريحة"

ابتسم أبو بكر في دهاء

"إنها لي أنا فهو لا يحبني"

"لماذا؟"

"الأمر بسيط لقد أخرجتهم، أخرجت عائلته بأثرها من بلنسية"

"أشعر أن كلانا سيكون صديق جيد للآخر"

"بالطبع يا صديقي"

* * *

كان أبو سعيد ابن الفرج ينتظر ابن الحديدي في باحة قصره عندما دخل عليه مرحبًا

"مرحبًا بابن الفرج"

"السلام عليكم يا ابن الحديدي ماذا فعلت في أمر الفونسو؟"

"لقد رفض المأمون أي نصح"

"هل تظن أنه من الأفضل أن نترك الأعيان والفقهاء يحدثونه"

"لا أظن وخاصة أنه أمرني الا أتحدث معه مرة أخرى في هذا الأمر"

"ولكن هذا الأمر قد يتضمن تلميحًا آخر"

"تعني أن نتخذ نحن اللازم "

"نعم لن يضير الأمر أحدًا عندما نكلف

بعض الحرس بتتبع خطوات الفونسو دون أن يشعر، ودون أن نسبب إحراجًا للمأمون"

"قد يغضب المأمون"

"هل تعلم كم عامًا لنا إلى جوار المأمون؟! ما يتخطى الثمانية والعشرين عامًا منذ تولى الحكم"

"ولكنك لا تضمن غدر الملوك"

"صدقني إنه يثق بنا تمامًا، ويستمع إلى مشورتك بوجه خاص، ويعرف أن ما نفعله من باب حرصنا على ملكه"

"حسنًا، عليك أن تختار لي بعض رجالك الأكفاء، أرسلهم لي ودع لي تدبير الأمر"

"صدقني يا فقيه لقد أحسنا التصرف. فهذا الألفونسو يروح ويغدو في بلادنا، ويطلع على خبايانا"

"أتمنى على الله ذلك أن نكون أحسنًا التصرف"

* * *

تعالت طرقات النحاسين بالسوق واختلطت بنداءات الباعة عندما وقف بائعان يتحدثان:

"هل رأيت ذلك الرجل الذي مر منذ قليل؟"

"نعم يبدو أنه غريب"

"إنه ألفونسو ملك ليون"

"وكيف عرفته؟"

"إن له شهرين يجول بالمدينة يخاطب الباعة والناس لقد تحدثت إليه بالأمس"

"وهل تعرف لغته؟"

"بل هو الذي يتحدث العربية ولكنه يتحدثها بصعوبة"

"وماذا يريد؟"

"إنه يسأل بفضول عن كل شيء"

"لقد سمعت أن بعض النصارى يجتمعون به في القصر الذي خصصه له المأمون"

"ليسوا وحدهم هناك العديد من أهل طليطلة يذهبون إليه"

"لماذا؟"

"البعض ينظر لهذا على أنهم يجالسون ملكًا، والبعض يتخذها من باب الفضول"

"وهل يعلم المأمون بكل هذا؟"

"بالتأكيد فهو من تركه يجول بين الناس هكذا، إن من ذهبوا إلى القصر الذي خصصه لهذا الرجل يحكون عجبًا"

"هذا الظالم يضيق علينا ويأكل أموالنا ثم

يُنعِّم فيها هذا الظلوم"

"ليتها كانت على حد ذلك يا صديقي الا تذكر ذلك الاحتفال الذي أقامه لختان حفيده منذ سنوات، أرايت البذخ في الطعام وفي القصور"

"أنا لا أعرف كيف سيلقون ربهم"

"آه هكذا الحياة نحن نعمل ونكد وهم يتنعمون"

"هيا أغلق حانوتك لنذهب إلى الصلاة حتى لا نشقى في الدنيا والآخرة"

"أصبت ولعلنا نستمع إلى درس اللورانكي فأنا أحب دروس هذا الرجل"

* * *

كان ألفونسو يراقب أسوار المدينة وهو

واقف بنهر التاجُه عندما التفت إلى فرناندو قائلاً

"أتساءل أحيانًا أينَ يصب هذا النهر"

"في البحر الكبير عند أشبونة"

ابتسم الفونسو وهو ينظر إلى النهر

"وكأنني لا أعرف فرناندو"

"إن من يمتلك هذه الأسوار يا مولاي لقادر على امتلاك هذا النهر وما خلفه"

"إذًا فأنت تعرف ماذا أريد"

"لا أستحق أن أكون مستشار مولاي إن لم أكن أفهم سكناته قبل كلماته"

"هل تظن فرناندو أنني سأجتاز هذه المحنة ذات يوم"

"ما أسرع ما تدير هذه الدنيا ظهر المجن.

للمنتصرين"

"ولكن سانشو يزداد قوة. بالأمس كان في جند قشتالة وحدهم، واليوم في جند قشتالة و.."

وصمت قليلاً ثم استطرد في أسى

"وجند ليون"

ودارت عيناه في المكان دون أن تنتبه لهؤلاء الفتية المترصدين خلف أحد الجدران، كانوا ثلاثة فتية ينتظرون اللحظة المناسبة

"ألم تأت اللحظة المناسبة بعد؟"

تنهد أحدهم في ولع وهز رأسه نافيًا وقال

"لا تنس أنهم مقاتلون محترفون ونحن مجرد فتيان"

"أنا متشوق لهذه اللحظة"

"وأنا أموت شوقًا لها"

"إنهم يغادرون"

"هيا خلفهم ولكن في حذر يجب أن نعرف كل خطواتهم دون أن يشعروا بنا ووقتها نتخير اللحظة المناسبة"

وتسلل الفتيان خلف ألفونسو وفرناندو في حذر، ومن خلفهم وقف رجلان في زي التجار مع أحد الصيادين، وقد احتدم النقاش حول شراء صيد له، وما إن أنقدا الرجل ثمن السمك وابتعدا قليلاً حتى التفت أحدهم للآخر وقال:

"هناك من يسعى خلف القشتاليين"

"رأيتهم"

"ولكن هذا قد يكشف أمرنا"

"لذا يجب أن نبعدهم بأي شكل"

"ما الذي تفكر فيه؟"

"دعنا أولاً نعرف من هم ولكن في حذر حتى لا يشعر أي من الطرفين بنا"

"ثم؟"

"لنؤجل ما بعد ثم الآن"

وشرد قليلاً ثم استطرد

"فالأمر قد يحتاج لبعض المشورة".

وانطلقوا خلف القشتاليين والفتيان في إصرار.

* * *

جلس ألفونسو في كرمة القصر ومن حوله بعض النصارى من أهل طليطلة وهم يستمعون إليه في شغف.

"أنتم لم تجربوا الحياة في كنف الرب هناك في الدير وسط الرهبان، وفي شذى القديسين بعيدًا بعيدًا عن ضجيج الحياة وآثام الآثمين، أنا جربتها جربت هذه الحياة"

"ولماذا لم تستمر في هذه الحياة يا سيدي؟"

"لقد شعرت بشيء داخلي وكأنه نداء من الرب، أن حدّث الناس عن هذه الحياة المقدسة"

"أنا لا أظنني أحتاج لهذا لقد أعطاني الرب المال والاستقرار، وأقسم أنني لم أتخلف عن الصلاة في الكنيسة أبدًا"

"أصبت يا أخي فالرب منحنا الحياة لنعيشها في طاعته. أذكر عندما كنت أحيا في ليون كنت أطرب عندما أسمع أجراس الكنيسة العظيمة تدق مثلما كانت تدق في هذه البلاد

قديمًا عندما كنا ملوكها."

"من كان ملوكها؟"

"نحن، جدودي وجدودك عندما كانوا يملكون هذه الأرض قبل أن يأتي المسلمون ويستلبون منهم هذه الجنة"

رد أحد الشباب المتحمسين

"لحظة يا سيدي ماذا تقصد بيستلبون منهم هذه الجنة؟"

"ما اسمك يا بني"

"يوحنا يا سيدي"

"قديمًا قديمًا كانت هذه البساتين والجنان لجدودنا الروم"

"قديمًا قديمًا كانت هذه البساتين أرضًا قحلة، وأبي كان أحد الذين استزرعوا هذه

البساتين"

"انظر ها أنت قلت كانت أرضًا قحلة لقد أفسدوا بساتيننا حتى جاء أحفاد الروم ليعيدوا زراعتها"

"سيدي أرايت هذه الأشجار إنها من بلاد المشرق، وهذه من أفريقية، هل رأيت مثلها في بلادك؟"

"لقد كان قبل أن يتلفه المسلمون والآن الرهبان في الأديرة يعملون على إعادتها؛ لقد كنت معهم نزرع سويًا مثلما زرعتم أنتم هذه الأشجار"

"الرهبان في الأديرة هؤلاء المنقطعين عن الدنيا"

"نعم يا يوحنا"

"إن أستاذي الحاج إبراهيم ابن بصّال سافر في أرجاء العالم ليجمع علمه لم ينقطع عن الدنيا مثلهم"

"يبدوا أنك متأثر بأستاذك"

"بل لا أحب أن يغبن أحدهم عملي، لقد عملنا كل أهل طليطلة لتكون هذه الجنة، وأكره أيما كره أن يأتي بكلام مفاده أننا لم نفعل شيئًا"

هنا تدخل أحد الشيوخ

"تمهل يا يوحنا فالملك فقط يحكي لنا عن الأيام التي عاشها بين الرهبان وفي بلاده"

"أصبت يا أخي أنا فقط أتذكر، لقد ذهب جدودنا وجدودهم ولم يبق إلا كرم المأمون معنا ومعي على وجه الخصوص، أنا لا أظنه

قصّر في حق أي مسيحي أو استلب حقه اضطهادًا منه للمسيحي"

"بالطبع يا سيدي"

"وأنتم يا من يسرتم عليّ غربتي، يا من رافقتموني في رحلتي أذكّركم دومًا أنني سأكون في خدمتكم كلما طلبتموني، وأينما طلبتموني سواء كنت هنا أو في بلادي إنه الرب الذي ألهمني ذلك"

تكلم يوحنا من جديد

"سيدي أريد أن أرتب لقاء بينك وبين ابن بصّال لترى بستانه إن فيه العجب أظن أن هذا سيعجبك كثيرًا"

"بالطبع سأكون سعيدًا بذلك فبكل تأكيد هو رجل عظيم طالما أنك تحبه هكذا"

وانتبه ألفونسو على صوت فرناندو القادم عليهم وهو يستأذنه

"مولاي ألفونسو هل تسمح لي ببعض وقتك"

"بالطبع يا عزيزي"

ابتعد ألفونسو مع فرناندو

"لقد وصل رسول دونيا أوراكا"

"هل هناك جديد؟"

"إنها تخبرك أنها بخير حال وتسألك إن كنت تريد شيئًا"

"فقط"

"وتقول إن سانشو على أبواب جليقية والأمر لا يبشر بخير"

"لماذا؟"

"أنت تعرف مولاي غرسيه، إن سلوكه

أغضب كل أهل المدينة وهذا سيسهل مهمة سانشو"

"ثم بعدها يستدير لينتقم من دونيا"

"أخشى ذلك"

"إن الأمور تزداد سوءًا"

* * *

الانتقام

كان ابن الحديدي جالسًا في الديوان يراجع المظالم عندما طلب رجل الدخول عليه

"سيدي ابن الحديدي"

"هل هناك جديد في أمر القشتاليين؟"

"هناك أمر خطير"

نظر ابن الحديدي إلى الرجل في قلق مستحثًا إياه على الحديث

"ما هو؟"

"هناك ثلاثة فتيان يتتبعون الملك ألفونسو والشر باديًا عليهم"

"هل عرفتم من هم؟"

"لقد عرفنا أحدهم يسمى أحمد ابن منصور أحد طلبة اللورانكي"

"هل لاحظهم ألفونسو؟"

"حتى هذه اللحظة لا أظن"

"ماذا تعنى بلا أظن؟"

"إن القشتاليين شديدي المكر، وتصرفات الفتيان الساذجة قد لا تخفى عليهم"

"لو علم المأمون سيغضب غضبًا شديدًا"

"الأدهى يا سيدي أن أمرنا صار عرضة للافتضاح"

"الأولوية الآن لإبعاد هؤلاء عن القشتاليين"

"أمر سيدي"

"واصلوا متابعة ألفونسو واحرصوا ألا يتعرض له الفتيان"

"لماذا لا نمسك بالفتيان ونزج بهم في السجن؟"

"خطأ إياكم أن تلجئوا إلى ذلك فهذا سيدفع الكثيرين للتساؤل مما يفضح أمر مراقبتنا للقشتالي"

"ولكنك يا سيدي قلت الأولوية لإبعادهم عن القشتاليين"

"هذا في حالة إثارتهم للمشاكل"

"إذًا فسيدي يريدنا أن نراقب الفتيان وأن نحرص ألا يتعرضوا للقشتاليين تحت أي ظرف"

"أصبت وانتبهوا فقد يظهر مثلهم الكثير،
تستطيع الانصراف الآن"
غادر الرجل الديوان ووقف ابن الحديدي
ليجمع أوراقه على عجالة وهو ينادي
"يا غلام أعد الدابة"
وما إن انتهى من جمع أوراقه حتى خرج
مسرعًا وأشار إلى رجاله فصاح أحدهم
"أمر سيدي"
"هيا فنحن ذاهبون إلى المسجد الجامع"

* * *

دخل ابن الحديدي إلى المسجد الجامع ورأى
اللورانكي يختم صلاته فجلس إلى جواره
"السلام عليكم"
"وعليكم السلام يا ابن الحديدي لقد

شغلك المأمون عنا"

"لـك أن تتوقـع كـمّ الأعبـاء الملقـاة علـى كاهلي"

"هذا أمر بديهي يـا ابن الحديدي ولكن أي ريح طيبة جاءت بك إلينا"

نظر ابن الحديدي إلى اللورانكي في تمعن

"هل تعلم يا لورانكي أنك دائمًا ما تفشل في إخفاء دخيلة نفسك"

استدار اللورانكي في ضيق فاستطرد ابن الحديدي

"هنـاك أمـر يغضبك مـني، أَفْصِحْ بـه لعلني أستطيع إرضاءك"

"أنت تعلم يا فقيه"

"أعلم ماذا؟"

"عدو الله الذي يسكن بلادنا"

"هل تبث آراءك هذه بين طلابك"

نظر إليه اللورانكي في دهشة وغضب

"وهل هناك من يملي علي ماذا أقول؟"

"لم أقصد هذا ولكن دعني أسألك هل تعرف من يدعى أحمد بن منصور؟"

"ماذا تريد منه؟"

"أخبره أن يبتعد عن طريق الفونسو"

"هل تعرض للرجل؟"

"حتى الآن لا ولكن من يدري ما الذي قد يفعله؟"

"وما الذي يجعلك حريصًا على سلامة ألفونسو هكذا؟"

"بل أنا حريص على عملي الذي سيفسده

تلميذك، اسمعني يا أبا جعفر الأمر لا يحتمل جدل"

"وماذا تنتظر مني؟"

"أنتظر منك كل خير صدقني، وثق بي، فنحن في إثر الرجل فلا تدع تلميذك يفسد عملي"

علت نظرة متشككة وجه اللورانكي فاستطرد ابن الحديدي

"ثق بي فأنت تعرفني يا لورانكي"

* * *

كان ابن بصّال منكبًّا على فحص أحد النباتات في بستانه الواسع في تنوع غرسه قبل اتساع مساحته عندما اقترب منه تلميذه يوحنا ووقف في أدب جم يشاهده

"كيف حالك يا يوحنا؟"

"في خير حال يا سيدي"

"وكيف حال ثمارك؟"

"منذ أن استمعت إلى نصيحتك وتوقفت عن تسميدها بفضلات الخنازير وهي أفضل كثيرًا"

"أنا لا زلت أكرر: تجنب دومًا فضلات الخنازير والطيور المائية"

"لقد أرشدت كل رفاقي وجيراني إلى هذا"

"أنا لا أظن أن هذا موعد الدرس خاصة أنني لا أرى عبدالله معك"

"كلا يا سيدي إنه موعد الملك ألفونسو"

"آه تذكرت لولا إصرارك لما قبلت لقاءه أبدًا"

"إنني فقط أبغي أن يعرف أن هذه الجنة التي يراها من صنعنا نحن لا من صنع أجداده"

ابتسم ابن بصّال في شغف

"إن مثل هذا الرجل لا يفكر إلا في شيء واحد كيف يبرر فعله، أما الفعل نفسه فلا يحتاج منه إلى تفكير لأنه سيفعله بنفس الطريقة دومًا"

"ماذا تعني يا سيدي؟"

"هذا الرجل وأمثاله يفكرون دومًا في امتلاك كل شيء وطريقهم دومًا إليه القوة، فهذا لا يشغل بالهم فهم قد فطروا على ذلك، وإنما الذي يشغل بالهم كيف يبرر حقه فيما أخذ"

وشرد الرجل ببصره قليلاً ثم استطرد

"أحيانًا يكون البحث عن مبرر من باب خداع الآخرين، والذين بدورهم ينخدعون بكامل إرادتهم ليهربوا من ضعفهم، وأحيانًا يكون المبرر من أجل إرضاء ضميره الشخصي. ولكن هذا لا يغير من الواقع شيئًا أن ما أخذ أخذ ظلمًا وعدوانًا"

"أنا أختلف معك يا سيدي فهذا الرجل هو مجرد ملك مهزوم مخلوع يبحث عن السلوى وعن .."

"وعن ماذا؟ قلها أكمل كلامك"

ونظر له في ود

"الن تقول: بديل لملكه"

"نعم يا سيدي"

"لقد خرجت منك عفوية دون أن تقصد

كذلك الحقيقة دومًا"

"صدقني يا سيدي أنا لا أنظر إليه إلا كضيف"

"إذن دعنا نقابل ضيفك يا يوحنا"

"إنه ينتظر عند مدخل البستان"

"عند رياحيني الأثيرة دعنا نذهب إليه"

توجه الرجلان حيث وقف ألفونسو

"مرحبًا بالضيف"

"أظنني الآن أمام ابن بصّال عالم طليطلة لقد حدثني عنك يوحنا كثيرًا، وعن كتابك الفلاحة"

"إنه يبالغ كثيرًا"

"لا أظن ذلك، فروعة بستانك تؤكد ذلك"

"أرى أنك صرت تتحدث العربية بسهولة"

"ثلاثة أشهر ليست بالوقت القليل"

"أخبرني يوحنا أنك تريد أن تشاهد بستاني"

"سيكون هذا من دواعي سروري"

"على ما أظن أنك رأيت بستان الناعورة في قصر المأمون"

"نعم رأيته"

"إذًا فلن يبهرك هذا كثيرًا؛ فقد أنفقت هناك الكثير من وقتي، وجلب له المأمون النباتات من كل أرجاء المعمورة"

"حتى وإن كان ذلك صحيحًا فلا يجب أن يفوتني رؤية العبقري الذي أشرف على ذلك"

"إذًا بالتأكيد لم يفتك مقابلة ابن وافد"

"أليس هذا طبيب المأمون"

"والمشرف على بساتينه أيضًا إنه علامة"

"هل زار أرجاء المعمورة مثلك؟"

"من أخبرك بذلك؟! فقط كنت في طريقي للحج فزرت العديد من المدن"

"ولكنني أعرف أيضًا أن الرسائل تأتيك من كل أرجاء الأندلس لتستفتيك في أمور عديدة"

"يبدوا ان يوحنا قد كلمك كثيرًا عني"

"لدرجة أنني لو كنت ملكًا على هذه البلاد لجعلتك من وزرائي"

"لو كنت ملكًا على هذه البلاد لغادرتها أنا"

"لكم تحب المزاح"

"بل أحب الصراحة دعني أتجول معك قليلا في بستاني"

* * *

أنهى أبو جعفر اللورانكي درسه وحين شرع طلبته في القيام إذا به يصيح مناديًا

"انتظر يا ابن منصور فأنا اريدك"

باغت النداء ابن منصور فالتفت في بطء

"هل هناك من شيء يا سيذي؟"

تابع اللورانكي طلبته وهم يغادرون المجلس ثم التفت إلى تلميذه:

"لقد بلغني أنك تسير في إثر القشتالي"

"إذا فهم يريدون حمايته. أخبرهم أنني لا أخشاهم وأنني سأنال من هذا القشتالي ولو وضعوه في بروج مشيدة"

"من تقصد بكلامك؟"

"رجال المأمون"

"اسمعني يا فتى أنا لا أخاف المأمون، ولكن

هناك من هم في إثر القشتالي، وأنت تفسد عملهم"

"طالما أن هدفنا واحد ليتركونا إذًا فأنا أولى به"

"بل هدفكم مختلف تمام الاختلاف فأنت تريد الانتقام وهم يريدون مصلحة البلاد"

"وهل مصلحة البلاد تقتضي استضافة القتلة"

"الأمر معقد يا فتى ليس بالبساطة التي تتحدث بها فلا تدع حماسة الشباب تأخذك"

"ماذا تريد مني يا إمام؟"

"ابتعد عن هذا الرجل"

صمت الفتى ولم يجد جوابًا

"لن أستعجل ردك فكر في الأمر جيدًا

واستخر الله لعله يهديك إلى الصواب"

* * *

كان ابن الحديدي بباب قصر المأمون عندما أدركه أبو سعيد بن الفرج

"السلام عليكم ورحمة الله وبركاته"

"وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته ماذا فعلت في أمر القشتالي يا ابن الحديدي؟"

"لقد أتعب رجالك خلفه، فهو لا يكف عن التجوال في المدينة، ولا يتخلف عن مجالس المأمون، والداهية في أنه يحاول اصطناع الأعوان، ويجمع النصارى حوله مثيرًا للقبلية والعصبية الدينية"

"لا أظنه سينجح في الأخيرة فلقد هدأت العصبيات هنا منذ زمن والأهم ان أهل المدينة

امتزجوا لحد أنه بات من الصعب تمييز المولدين من العرب الفاتحين والذين اندمجوا منذ زمن بعيد في المجتمعات الجديدة حتى صاروا جزءًا من نسيجها"

"إن هذا يزيد من خطورة الأمر فهو يساعده على إعطاء الانطباع أن هؤلاء النصارى الذين بقوا على دينهم هم أهل البلاد الحقيقيون المنحدرون من الروم على حسب مزاعمه"

"لا أظن أهل طليطلة بهذه السذاجة"

"حتى ولو كان من بهذه السذاجة عدد قليل فهو سيشكل شوكة مغروسة في ظهورنا في أوقات الأزمات"

"وهل أخبرت المأمون بكل هذا؟"

"سأخبره الآن"

"وأين القشتالي الآن؟"

"لقد دعاه أبو بكر بن عبد العزيز لزيارته"

"اذهب إليه ببلنسية"

"نعم بعد أن استأذن المأمون"

"وماذا يريد من صاحب بلنسية؟"

"قل ماذا يريد منه صاحب بلنسية؟ لقد رصد الرجال ود شديد بين الاثنين"

"إن الأمور تزداد سوءاً"

ثم استدار ليخاطب أحد الحرس

"أيها الحارس أين مولاك المأمون؟"

"يتريض في بستان الناعورة يا سيدي"

"هيا بنا يا ابن الفرج لنذهب إليه"

قطعا الطريق في خطوات سريعة ليجدا المأمون وقد جلس مع ابن وافد

"السلام ورحمة الله على الخليفة"

"وعليكما السلام اجلسا"

والتفت إلى ابن وافد ليكمل حديثهما

"إذًا فأنت ترى أن الغذاء المفيد أفضل من الدواء"

"وكلما كان الدواء بسيطًا كلما كان أفضل"

نظر المأمون إلى الرجلين ممازحًا

"هل سمعتما يا فقهاء طليطلة"

"إن عبد الرحمن بن وافد لمن علماء طليطلة الذين لا يشق لهم غبار"

"صدقت يا ابن الحديدي والآن ما الذي جمعكما؟ أعرف أنكما لا تجتمعان إلا في المصائب"

"أصلح الله حياة مولاي، فقط أردنا حديثك في أمر الأمير القشتالي"

"تقصد ألفونسو ماذا هنالك؟"

"إنه يجمع حوله النصارى ويستقبل الرسل من بلاده"

"أعرف هل هذا ما تخشاه؟"

"إنه يجول في المدينة حتى صار خبيرًا بدروبها واليوم خرج إلى بلنسية"

"لا أدرى لما تستثقلون الرجل؟ أنا لا أرى شيئًا عجيبًا فيما يفعل، غير أنه يأتي ويحدثني بكل شيء، الرجال الذين يلقاهم وحديثه معهم، هل تحب أن تعرف فحوى الرسالة التي أرسلتها أخته؟ لقد انهزم أخوه ورفض جيرانه بنو الأفطس مساعدته؛ مما جعل أخيه يلجأ إلى

المعتمد وهو يقول: إن أخاه يستعد الآن لحرب أختيه إلبيرة وأوراكا. أرأيت إنه لا يكتمني شيئًا ، هل مازال الأمر يثير حفيظتكم؟ أما عن أمر خروجه إلى بلنسية فمن أخبركم بهذلك نسي أن ينبئكم بأنه بصحبة ولدنا هشام، فقد دعاهم ابن عبدالعزيز لمجلسه، ودعا صاحب مربيطر عيسى ابن لبّون أيضًا فعلى ما يبدو أن ابن عبدالعزيز يريد أن يقلد مجالس أنسي"

ثم نظر لهم بدهاء .

"هل تظنون أنه قادر على ذلك"

"أصلح الله الخليفة لا أحد مثل المأمون"

"أنا أقدر مخاوفكم وأفهم أسبابكم، ولكن هناك دومًا وجهين لكل عُملة ،

فشخص مثل ألفونسو قد يكون مفيدًا لو تطاول علينا أخيه سانشو يومًا"

"كل ما نطلبه يا سيدي بعض الحذر"

"الحذر لا يمنع القدر دعنا من هذا الآن أريد أن أكلفكما بأمر"

"السمع والطاعة"

"أريد أن أبعث رسولاً إلى قرطبة إلى أبي مروان ابن حيان"

"وزير بني جهور"

"لقد دالت دولة بني جهور منذ زمن، الآن الرجل مشغول بالكتابة في تاريخ الأندلس"

"هل يريد الخليفة استقدامه إلى بلاطه ليضمه إلى صفوته"

"لا أظنه يوافق على ترك قرطبة فقط أريد

استمالته لنا فلعله ينفعنا ذات يوم"

"السمع والطاعة"

"دعنا نكمل حديثنا يا ابن وافد كنت تكلمني عن الدواء البسيط"

* * *

الرحلة

وقف أحد الفتيان أمام القبور في خشوع حتى اقترب منه صديقيه

"يا ابن منصور لقد غادر القشتالي المدينة"

"ماذا؟"

"لقد خرج مع هشام بن المأمون إلى بلنسية"

"إذا سيعود مرة أخرى ليجدنا في انتظاره"

"لا تنس أنه في رفقة ابن المأمون"

"ولم أنس أيضًا أن أباه من أسكن أسرنا هذه القبور"

"ولكن الأمور تغيرت"

"كل ما أراه أنه تسلل مثل الحيات الفتاكة ليسكن في قصورنا"

"لقد بدأ الجند يضيقون علينا وبدأت أشعر بهم في إثرنا"

"أشعر بنبرة تخاذل في أصواتكما"

"فقط نرى أن نستمع لنصح اللورانكي"

"إذًا فأنتم ترون أن نتراجع بعد كل هذا"

"إن هؤلاء شهداء، والرجل لم يقتلهم بل فعلها أبيه، ولا تزر وازرة وزر أخرى"

"ليكن قد وصل الأمر إلى نهايته تستطيعون الرحيل"

"وأنت الن تأتي معنا؟"

"نعم سأبقى هنا قليلاً"

انسحب الفتيان في هدوء وهم يختلسون النظرات إليه حتى ابتعدا وانسابت دمعة حارة على وجنتيه ونظر إلى القبور محدثًا

"لقد ضعفت نفوسهم وآثروا الحياة أنا لا أستطيع لومهم"

وأطرق برأسه وكأنه يتذكر ما حدث ثم رفع رأسه في تحدٍّ

"يا سكان هذا المكان لتعلموا أني لن أنسى ثأركم، وأنني لن أفكر ما حييت إلا في الثأر من هؤلاء الذين دمروا حياتي"

* * *

وقف أبو بكر بن عبد العزيز أمام أبواب

بلنسية مع رجاله ينتظر موكب هشام ابن المأمون ورفيقه ألفونسو حتى لاح الركب بالأفق وامتطى فرسه وأسرع لاستقبالهم

"مرحى بابن الخليفة وولي العهد"

"مرحبًا بك يا ابن عبدالعزيز"

"إن لي الشرف أن تنزل ببلنسية أنت وضيفك"

"لطالما أخبرني أبي أنك من رجاله المخلصين"

"هذا شرف لي يا أمير"

انطلق الجميع تجاه المدينة يتقدمهم ابن عبدالعزيز وما إن وصلوا إلى قصره حتى اقترب بهدوء من ألفونسو عند دخولهم من بوابة القصر وقال هامسًا

"مرحبًا بك يا صديقي"

"مرحبًا بك يا أبا بكر"

"لقد نطقتها بالعربية"

"لقد صرت أجيد لغتكم"

"إن لنا حديثًا طويلاً هنا ، لنتحدث بحرية دون أن يرهف أحدهم السمع إلى حديثنا"

"على الرحب والسعة"

ابتسم ابن عبد العزيز في دهاء

"دعنا أولاً نهتم لأمر رفيق رحلتك"

وانطلق إلى الأمير هشام ليكمل مراسم استقباله، في حين قال ألفونسو لمستشاره فرناندو

"أنا لم أعرف في هذه الأرض مثل هذا الرجل ومثل سسنندو"

"من الواضح أنه اكتسب ثقة مولاي"

"إن اكتساب الأصدقاء له فائدة عظيمة"

ثم نظر من حوله واستطرد

"خاصة في بلاد مثل هذه تحوي كل هذه الخيرات"

* * *

جلس ابن عبدالعزيز مع ألفونسو وفرناندو في أحد القاعات الوثيرة بالقصر

"هل تستمتع بوقتك في بلنسية يا ملك ليون؟"

شرد ألفونسو بذهنه قليلاً ثم ابتسم وهو يرد

"لم أسمع هذه الكلمة منذ زمن يا صديقي"

"أنا واثق أنك ستسمعها من جديد"

"لماذا تقول هذا؟"

"حدس"

"وهل جاء حدسك من فراغ"

"بل من النظر المتأنى للأمور"

"يا لك من مجامل! ما أنا إلا رجل فار من القتل، أقيم في قوم على عداء معنا ، وأخي قد أوشك على السيطرة على كل شيء فما بقي لم أره أنا"

ابتسم أبو بكر بسمته المعهودة

"أرى ملك يعاملك كولده، وولي عهد يوادك، وهمة متواثبة لا تكون إلا للملك"

"إن لكلماتك معاني جمة"

"لننتظر حتى يدور الزمان دورته لتعرف مدى إصابة حدسي وصدق كلماتي"

ابتسم ألفونسو في خبث

"وهل أنت قادر على انتظار دورة الزمان؟"

"حياتي كلها كانت كذلك اختيار الجواد وانتظار اللحظة التي سيربح بها"

"إذًا فأنت تدعي أنني الجواد الرابح"

"وأسألك أن تتذكر أنني كنت المخلص لك دائمًا عندما تأتي هذه اللحظة"

"أعدك أنني سأتذكر ذلك"

"سأعتبر هذا اتفاقًا بيننا سأذكرك به عندما تأتي ثانية إلى بلنسية"

خامر فرناندو القلق بسبب هذه الكلمات فقاطعهم قائلاً

"حقًا إن بلنسية لجميلة فعلاً"

أدرك أبو بكر قصد فرناندو فابتسم قائلاً:

"إن مخدومك يخاف عليك من التورط في مؤامرة"

ثم التفت إلى فرناندو

"هل تعرف أجمل ما في بلنسية؟"

ونظر في تحدٍ

"أن ما بها من آذان وعيون لي أنا، فلا تخف فيها من متسمع أو متسكع"

"إذًا فأنت تظن أن المأمون دس علينا العيون هناك"

"أمر طبيعي أن تجد هؤلاء في كل مكان يا صديقي"

"لقد شعرت بهم يتتبعوا خطواتنا"

"أنا لم يصلني شيء في ذلك لكن لو أردت أن أستطلع لك الأمر فسأكون سعيدًا بذلك"

"سأحفظ لك ذلك"

"وأنا لا أريد سوى ذلك"

وارتفع صوت الحارس

"لقد وصل الأمير هشام بن الخليفة المأمون ورفاقه"

"ها قد جاء صاحبك"

وقاموا وقوفًا لاستقبال ابن المأمون الذي التفت إلى الواقف إلى جواره

"هاهم يا ابن لبّون عديمو الولاء"

"إنهم يستحقون حكمك فيهم يا أمير"

وانقبض صدر فرناندو وامتقع وجه ألفونسو

* * *

وقف ابن وافد في بستان الناعورة يراقب ابن بصّال الذي سار إليه مسرعًا

"السلام عليكم يا سيدي"

"وعليكم السلام يا حاج إبراهيم لم تأتِ

إلى بستان الناعورة منذ زمن"

"وهل يتذكرني أحد في حضور العلامة ابن وافد"

"لقد شخت يا أبا عبد الله ولم أعد قادرًا على رعاية بساتين المأمون"

"ليعطيك الله الصحة يا شيخنا، إن النضارة لا تكاد تغادر وجهك وهل يعرف الشيب طريقًا للطبيب الماهر ابن وافد"؟!

"هكذا أنت دائمًا يا ابن بصّال لا تكف عن المزاح"

"ليس مزاحًا دعنا نستبق لنرى مَنْ منا الأوفر صحة يا سيدي"

"إن غيابك وضع على كاهلي حملاً ثقيلاً على مثل من بلغ من العمر مبلغي"

"انت تعلم يا شيخنا انني ما قصدت أن أضايقك ولكن أنت تعلم السبب"

"لو تقصد وجود القشتالي فإنه قد رحل"

"بل ذهب إلى بلنسية وسيعود ثانية"

"لا تكن كالطفل المدلل تحمل مسؤليتك"

"صدقني يا شيخنا لا أستطيع أن أتواجد في مكان قد الاقيه فيه"

"ولكنه أخبرني أنه زارك في بيتك وأنك حدثته عني"

"لو كنت قادرًا على طرد ضيفي لما ادخلته بيتي أبدًا"

"والمأمون كذلك"

"ولكنني قادر على ترك المكان هنا لوجوده"

وارتفع صوت المأمون قادمًا إليهم
"مرحبًا بصديقَيَّ الغاضبين مني"
"حاشا لله يا أمير أن نغضب منك"
"إذًا ماذا تسميان ما تفعلان؟ أحدكما لم يدخل قصري منذ زمن، والآخر يريد أن يذهب"
التفت ابن بصّال إلى ابن وافد ثم سأل المأمون
"هل حدث ما يغضبه؟"
"اسأله"
"إن الخليفة يهول فقط من الأمور"
"ما رأيك أنت يا ابن بصّال لقد غضب لخروج هشام ولدنا إلى بلنسية"
"إن صحته المعتلة قد لا تتحمل جهد السفر"

"وكيف سيكون قادرًا على الكر والفر إذًا؟!"

"أردته فقط أن يسترد صحته"

ابتسم ابن بصّال وهو يقول:

"إن هذا لا يعبر سوى عن عظيم إخلاص من ابن وافد يا سيدي"

"أعرف يا ابن بصّال، وأحمد الله دائمًا أن حباني رجالاً مخلصين مثل المحيطين بي"

* * *

دار الأمير هشام بعينيه بين ألفونسو وفرناندو

"انظر يا ابن لبّون كيف يخافون العقاب"

"بالتأكيد هم يستحقونه"

"كيف لا؟! وقد تركونا نائمين وسبقوا هم إلى هنا ليستمعوا إلى الغناء والموسيقى من دوننا

فيا لهم من معدومي الولاء"

تنفس فرناندو الصعداء وارتدت الدماء إلى وجه ألفونسو وتكلم ابن عبد العزيز

"هم فقط لم يريدوا إزعاجك يا أمير"

"لا تدافع عنهم يا أبا بكر فأنت أيضًا تستحق العقاب، والجرم بادٍ على وجوهكم جميعًا"

"يجب أن يخضعوا لأشد عقاب يا أمير"

"ماذا تقترح يا ابن لبّون؟"

"أن تحرمهم من قضاء الليلة معنا"

"اصمت يا ابن لبّون فالمغنين والعازفين يأتمرون بأمره، وسيفسد علينا الليلة ونكون قد عاقبنا أنفسنا".

"بل أمر الأمير فوق الجميع"

"طالما أن الموجودين يأتمرون بأمري؛ فأنا أريد أن أسمع من يتغنى بموشحات ابن لبّون، فقد سمعت منه أبياتًا أطربتني"

أشار ابن عبد العزيز إلى العازفين والمغنين ليدخلوا القاعة

"نريد أن نسمع من أشعار ابن لبّون"

انسابت الموسيقى وارتفع صوت رخيم

"من أطلع البدرَ في كمال

غصن اعتدال

كم قلتُ لا أدّعي بحبهْ

لطول إعراضه وعتبهْ

حتى إذا لاح صبحُ قربهْ

أبديتُ من عزة الجمال

ذلّ السؤال

مازلتُ أشكو له ببعدهْ

حتى ارعوى حافظًا لعَهْدهْ

كأنه إذا أتى لوعدهْ

يختالُ في ظُلمة الدّلالِ

طيفُ الخيال"

* * *

سار ابن الحديدي في ردهات القصر الذي خصصه المأمون لسكنى ألفونسو وفي رفقته أحد الجنود، وقد بدا على وجهه الاهتمام وهو يوجه حديثه إلى الجندي

"أريد أن أعرف كل كلمة تدور في هذا القصر في الفترة القادمة"

"رجالنا في كل مكان في القصر يا سيدي يرصدون دبيب النملة"

"لا أحتاج لتنبيهكم من جديد لا يجب أن يشعر بوجودكم"

"فقط تبقى أمرًا يا سيدي يتعلق بالفتيان الذين كانوا في إثر الفونسو"

"ألم تخبرني أنهم تركوا هذا الأمر؟"

"ولكن أحدهم اختفى تمامًا"

"ماذا تقصد باختفى تمامًا"

"لم يعد يذهب للمكان الذي يقيم به ولا دروسه بالمسجد الجامع"

"هل سألتم الفتيين الآخرين"

"ادعيا أنهما لا يعرفان عنه شيئًا"

"بالتأكيد ستجدون من يعرف مكانه"

"إنهم يتداولون سرًا أننا أمسكنا به"

"إن هذا الأمر لا يبشر بخير. هل من الممكن

أن يكون خرج خلف القشتالي إلى بلنسية؟"

"لا أظن يا سيدي فهو لن يستطيع التعرض له في موكب الأمير هشام"

"توقفوا عن ملاحقته وكونوا على حذر"

وغادر القصر ثم التفت إلى الحارس مستطردًا:

"فإن كان يضمر شيئًا فلابد أنه سيعاود الظهور"

* * *

استعد ركب ابن المأمون لمغادرة بلنسية، وانشغل الجميع بالإعداد لهذه الرحلة واقترب ابن عبد العزيز من ألفونسو قائلاً

"لقد كانت ملاحظتك سليمة يا صديقي"

"بشأن؟"

"بشأن مراقبتهم لك إن العيون من حولك في كل مكان"

"إذًا فالمأمون لا يثق بي"

"ليس المأمون ولكنه ابن الحديدي"

"هل يفعل هذا بدون علم المأمون؟"

"لا أعرف تمامًا ولكنه حتى ولو علم سيتركه يفعل"

"إن ابن الحديدي والآخر المسمى ابن الفرج لهم سطوة كبيرة على المأمون"

"ليست سطوة ولكنه يثق فيهم بشدة"

"إلى هذه الدرجة"

"وأكثر من ذلك"

"أشكرك على صنيعك"

"وهناك خبر آخر وصل إلينا من بلادك لا

أعرف إن كان من المناسب أن أخبرك به أم لا"

نظر ألفونسو في قلق

"ما هو؟"

"لقد سقطت مدينة تورو في يد أخيك سانشو"

وتضاعف القلق على وجه ألفونسو.

* * *

وقف رجل ملثم يراقب ألفونسو وفرناندو عند وصولهم من بلنسية، ثم اقترب من نقطة منخفضة من السور وقفز من فوقها واختفى بين الأشجار المنخفضة وجلس في صمت يترقب، ورأى ألفونسو يقترب من مكانه فازداد تحفزه

"انظروا يبدوا أن لدينا زائرًا"

التفت الملثم إلى الصوت الذي باغته من

الخلف ليجد ثلاثة من الجنود وقد أحاطوا به

"من الأفضل أن تأتي معنا بهدوء دون أن تثير ضجة وإلا فلا تلومن إلا نفسك"

سار معهم الملثم وهو ينظر يتلفت يمينًا ويسارًا.

"لا تتعب نفسك كثيرًا فليس هناك مفرٌ لك"

واقتربوا من قائدهم الذي كان واقفًا مع أحد الخدم

"سيدي لقد أمسكنا بهذا الرجل وهو مختبئ في الحديقة"

مد قائد الحرس يده ليزيل اللثام من على وجهه:

"انظروا من لدينا هنا"

وابتسم وهو يوجه له الكلام

"مرحبًا بك يا ابن منصور هل تعلم أنك تستحق عقابًا شديدًا"

"هل تريد عقابي لأني أردت قتل عدو الله"

"بل لأنك كشفتنا له"

نظر إليه ابن منصور في تحدٍّ فاستطرد:

"أفعالكم الصبيانية جعلته يشعر أن هناك من يراقبه"

"وما الذي يعنيني في كونكم تريدون حمايته؟"

"أيها المكابر لقد نظر إليَّ هذا الرجل نظرة عندما وصل القصر، وكأنه يخبرني أنه عرف بأمر مراقبتنا له، والفضل يرجع لك"

"لازلت تتحدث في أمور لا أبالي بها"

"لم يكن من المفترض أن أتحدث معك

سأرسلك إلى الفقيه ابن الحديدي لينظر هو في أمرك"

والتفت إلى الجنود

"هل شعر بكم أحد؟"

"كلا يا سيدي"

"خذوه في هدوء إلى الفقيه ابن الحديدي"

ابتعد الجنود بابن منصور والتفت القائد إلى الخادم

"عد أنت الآن إلى الداخل ولا تدع كلمة من كلام رسول سمورة تفوتك"

* * *

وقف ألفونسو في حزن بالغ أمام المأمون وابن الحديدي وهو يخبرهم بخبر استيلاء أخوه سانشو على مدينة تورو التي تحكمها أخته

إلبيرة وحصاره لسمورة

"صاحب الجلالة إن أوراكا المسكينة

تعاني جزاء مساعدتها لي"

"ليس جزاء مساعدتك إن هدف أخوك كان

من البداية السيطرة على كل ممالككم"

"لقد نجح في ذلك لقد صارت كلها له لم

يبقَ أمامه سوى سمورة"

"لقد عرفت من حديثك الدائم عن أوراكا

أنها حكيمة"

"وماذا تفعل الحكمة أمام هذه القوة

الغاشمة"

"انتظر وستعرف"

"كم كنت أريد مساعدتها حتى إنني

استبقيت رسولها"

"لقد وصلني أن الفرسان المحيطين بها يستبسلون في الدفاع عنها فلا تقلق"

"أفكر في الخروج للقتال معها"

"وماذا ستغني عنها انتظر ولا تتعجل الأقدار"

"هل يسمح لي صاحب الجلالة بالانصراف للصلاة من أجلها؟ فهذا كل ما أملكه الآن"

"لك هذا يا ولدي"

خرج ألفونسو من المجلس وهو يفكر ماذا سيفعل؟ وقد بدا عليه الاهتمام، وتوجه ابن الحديدي للمأمون بالكلام

"إنه يريد أن يغرر بنا إلى حرب ليست حربنا"

"أعرف يا أبا بكر. وأنت رأيت أنني لم أعطه الفرصة لذلك"

"إنهم إخوة. أنت ترى يا مولاي أنهم في النهاية

لا يمسون أنفسهم بسوء فها هو غرسيه تركه أخوه ليذهب لإشبيلية، ولقد ظننت في البداية أن استضافتنا لألفونسو قد تسبب لنا مضايقات من أخيه ولكن هذا لم يحدث"

"وهل تعرف معنى هذا؟"

"أن أطماعه لن تتوقف على حدود مملكته وأنه قادم لا محالة"

"أريدك أن تجمع أصحاب الرأي لنرى كيف نستعد لهذا"

"السمع والطاعة"

* * *

عاش الملك

اقترب أحد الفرسان من معسكر الملك سانشو فأوقفه الحرس في غلطة فنزل عن فرسه ليحدثهم:

"أريد مقابلة الملك سانشو"

"من أنت وماذا تريد؟"

"أنا من فرسان دونيا أوراكا وأحمل سرًا خطيرًا"

هنا تقدم منه أحد فرسان الملك سانشو

"ماذا تريد؟"

"اريد مقابلة جلالة الملك سانشو"

"وماذا تريد منه؟"

"اريد ان أخبره بسر خطير"

"وما هو؟ تستطيع أن تخبرني"

"يجب أن أخبره به بنفسي حتى أضمن مكافأتي"

"سأخبرك شيئًا : الملك سانشو لا يستقبل أحدًا ، أخبرني أو اذهب من حيث أتيت"

"إنه أمر يتعلق بالمدينة المحاصرة"

"وما هو؟"

"إن حصاركم لن يؤثر بهم"

"وكيف ذلك أيها الفصيح؟"

"عندما يخرج المحاصرون ويدخلون كما يشاءون يكون الحصار غير ذي قيمة"

"أنا لا أتميز بالصبر"

"نفق قديم حفره المسلمون عندما كانوا بالمدينة واكتشفناه"

"من أنتم؟"

"فرسان سمورة"

"وأين هو؟"

"وأصبح عديم القيمة؟"

"طالما أنكم حقًا لا تبالون بالحصار لماذا جئت إذًا؟"

"وماذا سأربح إن فشلتم في حصاركم؟"

"إذًا فأنت تطمع في مكافأة"

"لقد قلت هذا من البداية"

"ولو فرضنا أنك كاذب"

"أنا بين أيديكم سأخسر حياتي"

"ولو فرضنا أن الملك سانشو رفض لقاءك"

"سأخبرك مطالبي وهو يقرر تساوي ما أعرف أم لا"

"أخبرني"

"أن أنتظم بين فرسانه و..."

"وماذا؟"

"وعشرة آلاف قطعة ذهبية"

"هل تمزح؟"

"هل أعود؟"

"انتظر سأخبره"

ترك الفارس الرجل ودخل خيمة الملك سانشو

"مولاي هناك رجل يدعي أن هناك نفق سري يقود إلى المدينة"

"وماذا يريد؟"

"يريد عشرة آلاف قطعة ذهبية"

"أين هو؟"

"بالخارج"

خرج سانشو مسرعًا

"أنت من يدعي أن هناك نفقًا سريًا"

ركع الرجل تحت قدمي الملك وهو ناظر إلى الأرض، وهو يقبض على رمحه ويستند بقبضته على الأرض واليد الأخرى على ركبته

"نعم يا مولاي"

"وما دليلك؟"

"اسأل رجالك إن كانوا رأوني وأنا أخرج

من الباب أم لا"

"هل هناك من كان يراقب أبواب المدينة؟"

رد أحد الحرس بذعر:

"كلنا يا مولاي"

"هل رأيتم هذا الرجل يخرج منها؟"

"أبدًا يا مولاي"

"أرأيت يا مولاي لم أخرج من الأبواب على الرغم من أني قادم من المدينة لقد خرجت من هذا النفق"

"وماذا تريد؟"

"أريد أن أكون خادمك"

"لك كل ما تريد أخبرني أين هو"

وقف الرجل وأشار بيده الممسكة بالرمح إلى الجانب الغربي من السور

"هناك يا سيدي خلف هذه الأشجار"

التفت الجميع إلى حيث يشير الرجل، ولم ينتبهوا إلى حركة الرمح الذي تراجع بسرعة ليستقر في صدر الملك سانشو، وقبل أن يستوعب الرجال الموقف، قفز الرجل على فرسه وانطلق كالريح لم يستطع أحدهم إيقافه، وفي ظل سكرتهم كانت ضربات الرجل تطيح بأقرب الناس إليه ثم اختفى.

"لقد مات الملك سانشو لقد مات الملك سانشو"

* * *

وقف أحد الرجال في بهو قصر ابن الحديدي، وقد ظهر عليه القلق الشديد، وعندما وقعت عينه على الوزير المسرع إليه

"أدركنا يا مولاي ألفونسو ينوي الهرب"

"ماذا؟ اهدأ واشرح لي الأمر"

"لقد وصله كتاب من قشتالة يخبروه بموت أخيه ويدعونه للحضور لتولي الحكم مكانه لقد سمعته وهو يناقش مستشاره فرناندو حول شأن هروبه"

"ماذا قالوا؟"

"كانوا يتكلمون عن إذا ما كان هروب الملك في الخفاء أم استئذانه من الخليفة أفضل"

"وعلى ماذا انتهى النقاش؟"

"لقد أقنعه فرناندو باستئذان المأمون، وإن كنت ألمح الغدر في عينيه"

"ما الذي جعلك تقول هذا؟"

"لقد تأكدت لي شكوكي التي حدثتك

عنها من قبل لقد شعر ألفونسو بمراقبتنا وأي حوار الآن في العادة صار بالتورية لتضليلنا"

"على العكس يا رجل هذه المرة لا أظنه يوري لسببين: الأول أن فرحتهم ستنسيهم ذلك، والثاني أنهم يعرفون بأنهم سيقعون في قبضتنا لو حدث ذلك؛ لأنهم مراقبون كما قلت، ولن يبقى أمامهم سوى أمر واحد هو الخروج بأمر الملك وبصورة شرعية"

"ماذا نفعل الآن؟"

"احرصوا على ألا يتعرض لهم أحد وراقبوا كل ارتدادة طرف لهم، ودعوا الباقي لي لا تفعلوا شيئًا إلا بأمري"

* * *

وقف أحد الفرسان بباب القصر الذي يقيم

به ألفونسو عندما استوقفه الحرس

"أريد مقابلة الملك ألفونسو"

نظر الرجال إلى بعضهم فلم تعجبهم الكلمة ثم توجهوا إليه بالسؤال

"من أنت؟"

"أنا رسول من قشتالة إليه"

نظر إليه أحد الحرس باقتضاب ثم التفت إلى زميله

"أخبر ضيف الخليفة بأن هناك رسولاً من قشتالة يطلب لقاءه"

انطلق الحارس مسرعًا حتى وصل الى مجلس ألفونسو

"سيدي هناك رسول من قشتالة يطلب لقاءك"

نظر الفونسو إلى فرناندو نظرة ذات معنى

"أحضره إلى هنا"

خرج الحارس فقال الفونسو:

"لقد وصل رسول الكونتات الذي أخبرتني به أوراكا"

"يبدو أن الأمور خرجت عن سيطرتهم"

"لولا أن نبهتنى أوراكا أولاً لظننت أن فى الأمر خدعة ما"

"ها هو قد وصل"

"مولاي الفونسو"

"من انت يا رجل؟"

"أنا رسول من كونتات قشتالة وليون وجليقية"

نظر الفونسو الى فرناندو في خبث وسأل

الرجل

"وهل يعلم أخي الملك سانشو بأمرك؟"

"لقد قتل الملك سانشو يا سيدي"

وقف ألفونسو في ذهول مصطنع

"ماذا أخي العزيز قتل؟ يا للمصيبة"

ورد فرناندو

"أقتل سيدي سانشو؟! هذا غير معقول"

"بل قتله أحد الخونة على أبواب سمورة يا سيدي"

رفع ألفونسو يده في صورة مبالغ فيها

"ابك يا عيني مقتل أخي، ابك يا فرناندو لقد أظلمت الدنيا من بعده"

ثم جلس وأطرق قليلاً، وأخفى وجهه بكفيه ليظهر حزنه العميق، ثم رفع رأسه إلى

الرجل قائلاً:

"وما الذي يريده مني الكونتات بعد هذا المصاب الشديد"

"يريدون لقاءك في برغش يا مولاي"

"لماذا؟"

"لأنهم يرون أنك أصلح من يتولى الملك يا سيدي"

"أخبرهم بأني سأحضر إلى برغش لنناقش ذلك الأمر"

وأشار إليه

"تستطيع الانصراف"

خرج الرجل والتفت ألفونسو إلى فرناندو

"هل تظن أننا كنا مقنعين؟"

* * *

وقف ابن الحديدي أمام المأمون وقد بدت الجدية على وجهه

"هذا كل ما حدث يا سيدي، لقد استوثقت من خبر موت سانشو، والرسول الذي أرسله الكونتات في قبضتنا الآن، لقد أمسكنا به في طريق العودة، ولا يعلم بأمر القبض عليه أحد أما رسول أخته أوراكا الذي حمل الخبر أولاً فلم نلحق به"

"وألفونسو؟"

"أظنه قادم إليك الآن ليخبرك بالخبر"

"ولو حاول الهرب؟"

"لن يستطيع فنحن نحصي عليه أنفاسه"

"ولو حاول؟ ألم تكن دومًا تحذرني منه"

"ومن كرمك معه ومعاملته معك أقول إنه

سيأتي"

"إذًا لماذا تخبرني؟"

"لتكن مستعدًا ولا تفاجأ ويكون قرارك جاهزًا"

"وهل تظن أنني سوف أمنعه؟"

"لا ولكن لتأخذ منه المواثيق بألا يعتدي على بلادنا"

"أصبت"

وظهر عليه التفكير العميق

"اتركوا الرسول الذي أمسكتم به ليعود إلى بلاده"

"أمر مولاي"

ارتفع صوت الحاجب يعلن رغبة ألفونسو في الدخول

"دعه يبدأ هو بالخبر"

"أدخله يا حاجب"

دخل الفونسو والحبور يبدو على وجهه، والذي لم يؤثر عليه حتى تلك النظرة المتشككة إلى ابن الحديدي، فانحنى انحناءة خفيفة وأسرع مبادرًا.

"مولاي لقد قتل أخي سانشو"

"في الأوضاع العادية كان يجب أن أواسيك، أما في هذه الحالة فأظن أنه من المناسب تهنئتك"

"أشكرك يا صاحب الجلالة"

"وماذا تنوي الآن؟"

"أنوي العودة إلى بلادي. في البداية سأذهب إلى سمورة ومنها إلى برغش حيث ينتظرني

الكونتات"

"لا أستطيع منعك وإن كنا أنسنا بوجودك، ولكن هل تعدني بشيء؟"

"إن أوامرك تطاع على الفور يا سيدي"

"لقد آويناك بيننا كأهل، فقط يجب أن تتذكرنا كأهل، لا تعادينا أو تشارك من يعادينا ، ولنا حق العون منك عليه"

"هذا دين عليّ يا صاحب الجلالة"

"يا رجال أعدوا موكب الملك المسافر"

* * *

وقفت دونيا أوراكا في شرفة قلعتها تتابع موكب أخيها ألفونسو العائد من طليطلة وإلى جوارها سسنندو

"لقد عاد يا سسنندو وانكشفت غمتنا"

"الفضل يعود إلى حنكة مولاتي أوراكا"

"وإلى نصحك سسنندو"

"سأبقى الخادم الأمين لأسرة سيدي فرناندو إلى الأبد"

"أثق في ذلك سسنندو غير أن أسرة الملك فرناندو قد تمزقت"

وصاح الحارس الواقف بالباب

"الملك ألفونسو"

واستدارت دونيا إلى الباب ودخل ألفونسو إليها في لهفة، وانحنى أمامها وأمسك بيدها وقبلها في حين وضعت يدها على رأسه ...

"أختي الحبيبة أوراكا"

"مرحبًا بعودتك إلى أرضك ألفونسو"

"لقد اشتقت إليك كثيرًا تسعة أشهر

كاملة لم أسمع صوتك الحنون"

"أيها الكاذب لقد كان ينقضي العام تلو العام من قبل دون حتى أن ترسل رسولاً واحدًا"

"إن الشعور بالغربة يجعل الأيام تمر كالسنوات"

"لن تتوقف أبدًا عن الكذب يا ألفونسو كسابق عهدي بك في صباك"

"وكيف أكذب علي أختي الحبيبة"

"لقد أخبرني رسلي أنك لم تكن تشعر بالغربة في طليطلة، بل إنهم كانوا يميزونك بالكاد من أهلها"

"هذا لأن اختيارك كان موفقًا يا أميرتي"

"دعك من أكاذيبك المعسولة وأجبني: هل أرسل إليك الكونتات؟"

"كما أخبرتني تمامًا"

"وبماذا أجبتهم؟"

"بأنني سأذهب إليهم في برغش"

"أريد أن نتفق سويًا على ما ستفعله هناك بعد أن تحظى بقسط من الراحة"

"أمرك يا مليكتي ولكن ما مصير الرجل الذي قتل سانشو"

"نجح في الفرار"

"من بين كل هؤلاء الجنود"

"لأنهم لم يدينوا لسانشو بالولاء لا جند ليون ولا الجلالقة"

"إلى هذا الحد"

"لقد انشغل كل منهم بالعودة إلى بلده"

"لا أعرف حتى الآن .."

ردت أوراكا مقاطعة

"الآن ليذهب الملك المنتظر ليستعد للتتويج"

* * *

جلس ألفونسو بين الكونتات والفرسان في قلعة برغش وقد ظهر الوجوم على وجوههم من نظرات ألفونسو المتحدية.

"لقد قضيت هنا فترة من أهم فترات حياتي"

"لقد انتهت هذه الأيام يا مولاي"

"أيام الأسر لا تنسى ببساطة كونت لايان"

"لنتكلم الآن في الأمور الهامة"

"وهل ما مررت به كان عديم الأهمية"

"لقد مرت بنا جميعًا هذه الأزمة ولكن بدرجات متفاوتة، لا ينكر أحد أنك حظيت بقدر كبير منها، ولكن البعض فقد حياته"

"ومن ثم؟"

"من ثم دعنا نلتفت إلى الغد وننسى ما مضى"

"لك ذلك كونت كالثو لنلتفت إلى الغد. ماذا تريدون مني؟"

"نعرض عليك تولي الملك عوضًا عن أخيك سانشو ولكن .."

"ولكن ماذا؟"

صمت الجميع ولم يجدوا جوابًا فتدخل رودريجو

"ولكن يجب أولاً أن تثبت براءتك من قتل الملك سانشو"

"ما هذا الهراء أتتهمونني بقتل أخي؟"

تحدث الكونت لايان

"ليس الأمر كما يبدوا يا مولاي"

"إذًا كيف تراه أنت كونت لايان؟"

"لقد أشيع تورطكم مع دونيا أوراكا فى الإعداد لمقتل الملك سانشو"

"يا للهول هل تدينون الدونيا أوراكا"

"سيدي لقد كانت في حرب مع سانشو وكان يحاصر أسوار مدينتها وأمر منطقي أن..."

قاطعه الفونسو

"أي منطق هذا لقد صرتم أقرب إلى الحمقى والسفهاء في توزيع الاتهامات"

تحدث كونت كالثو

"نحن لا نتهم أحدًا يا مولاي فقط نحن بقول: أشيع ونتحدث عن أمور قد يتحدث بها

الدهماء"

"ومنذ متى نهتم بكلام الدهماء؟"

تدخل رودريجو من جديد

"عندما يصل إلى الكنيسة ويسمع به البابا لن يكون كلام دهماء"

عاد كونت كالثو للحديث

"وصول شائعة مثل هذه إلى آذان البابا ستكون بمثابة طعن في شرعية توليكم السلطة"

أكمل كونت لايان الحديث

"وهذا سيفقدنا دعم الكنيسة لنا"

"وكيف أقنع البابا بذلك الا يكفي كوني كنت بعيدًا عن أرضنا في هذا الوقت"

"لهذا السبب نحن نظن أن القسم كافيًا"

"هل تريدون مني ومن دونيا أوراكا أن نقسم على عدم تورطنا في قتل أخي؟"

"نريد منك وحدك القسم فلا يهمنا قسم دونيا أوراكا"

"إذا فأنا مطالب بالقسم لإثبات براءتي"

رد كونت لايان:

"من أجل الكنيسة فقط يا مولاي"

"ليكن لكم هذا"

تكلم رودريجو:

"يجب أن يكون هذا في الكنيسة ليشهد الرب"

"إذا فموعدنا في كنيسة برغش"

* * *

وقف الملك الفونسو فى كنيسة برغش ومن

حوله أخته، ومستشاره وسسنندو وكونتات قشتالة وفرسانه وفرسنان أخيه القتيل، وقال مُسرًّا إلى أخته:

"لقد اتفقت معهم على أن أقسم بأنني لم أشترك في قتل أخي"

"جيد كل شيء يسير كما خططنا له"

"لقد كان أمرًا عسيرًا أن أقنعهم بذلك، وخاصة أنهم على قناعة تامة بأنك من دبر قتل سانشو، ولولا أنهم يرغبون في تصديقي لإنهاء الأمر لما نجحت في إقناعهم"

"ومن سيتولى تحليفك"

"لا أعرف"

"سأخبرك شيئًا كلهم يهابون أن يتقدموا"

"يبدو أن هناك متطوعًا دائمًا"

"يا للشيطان إنه رودريجو"

"لطالما كرهت هذا الرجل"

"استعد فسيبدأ الآن"

نظر رودريجو إلى الملك في تحدٍ

"باسم الرب وفي حمى قديس المدينة أطلب من ألفونسو بن فرناندو وأخي الملك سانشو أن يقسم بأنه لم يشترك في مقتل أخيه، ولم يحرض على ذلك، ولم يعلم به أو يسعى إليه، أو أن يكون له صلة من قريب أو بعيد بقتله"

نظر الملك في تحدٍ لكل الموجودين الذين احتبست أنفاسهم ثم رفع رأسه في شمم

"أقسم على ذلك"

تنفس الجميع الصعداء إلا أن رودريجو أشار إلى الجميعَ بالصمت من جديد فتمتمت

آوراكا

"ماذا يريد هذا الشيطان؟"

"أيها الرب المجيد يا من سمعت قسم هذا الرجل إن كان كاذبًا في قسمه فسلط عليه خائنًا يقتله كما قتل الملك سانشو غدرًا"

وصمت برهة

"باسم الرب أعلن ألفونسو السادس ملكًا لقشتالة وليون وجليقية"

* * *

النهاية

وضع البروفيسور "خوسيه كاسيوس" قلمه وقام من على أوراقه التي يسجلها ونظر إلى ما كتب في سعادة، ثم أمسك بورقة مهترئة من المخطوطة، وأخذ يدور في غرفته ويقرأ بصوت مسموع

"ولكن هذا الملك لم يحفظ العهود، ولم يوف بمواثيقه للمأمون وعاد إلى طليطلة محاربًا، وكان قد درس خططها وعلم بما

درس من عزم أهلها. غير أن حكاية سقوطها قد قصها عليّ أبي في وقت لاحق، وكان بها الكثير من العبر وخبر من غبر وقص عليّ كيف لقب المدعو روديجو بالكمبيادور، وكيف أفسد في بلاد المسلمين، والتي قد أسجلها يومًا ما لو كتب لي الله السلامة والحمد لله الذي باسمه تتم الصالحات"

* * *

محمد عبدالفتاح حسين عيسى

٢٠٠٨/١/١٢